مؤنس الرزّاز

عصابة الوردة الدامية

رواية

مؤنس الرزّاز

عصابة الوردة الدامية

● عصابة الوردة الدامية

عصابة الوردة الدامية / رواية عربية
مؤنس الرزاز / مؤلف من الأردن
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧
حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :

لوحة الغلاف :
ميلو هيرموس / أمريكا
الصف الضوئي :
ساجدة العجوة ، عمّان

هيـــام

قال أبـي إننـا - أنـا ومعتصـم - نتصـرف أحيانـاً كالأطفـال الأشـقياء. وإننـا أحيانـاً نتصـرف كمراهقـين طائشـين، وأحيانـاً كراشدين ناضجين بل وحكيمين أيضاً، وإن هذه الظاهرة تحيره.

قال عمي إننا غريبان، تـارة يفقـد معتصـم ذاكرتـه ويتضخـم خياله، وتارة أخرى تتعملق ذاكرته وتنتفخ على حساب عقله. قال:

- يصبح قليل عقل.. كثير خيال.

◆

قال معتصم من وراء السور الذي يفصل بين بيتينا إنه يحن إلى أيام لعب كرة القدم في الحارة. سألني إذا كنت أتذكر. ومرت هبـة هواء طرية شممتها ولكنني لم أرها. قلت:

- وما الذي يمنعنا من اللعب الآن؟

طار معتصم من الفرح، دخل بيته، غاب وهو يحمل حذاءً كبيراً قديماً. قال إنه لا توجد لديه كرة قدم وان هذا الحذاء يشبه كرة القدم. ثم خرجنا إلى الشارع، وضعت حجرين في أوله، حجر قرب الرصيف الأيمن، وحجر قرب الرصيف الأيسر.

قلت إن هذا هو مرماي. فاقتدى بي وأعد مرماه، وبدأنا نلعب، نركل الحذاء القديم، حذاء أبيه الضخم، وانضم إلينا أولاد الحارة وطارت عقولنا فرحاً.

◆

والدي زعق في وجهينا، قال إننا فضيحة. قال وقد ومض شعاع الغضب في عينيه:

- ألا تستحي على طولك يا معتصم؟ هل رأيت في حياتك رجلاً بلغ سن الرشد، يسد الطريق العام أمام السيارات ليلعب بحذاء؟ إرحمنا يا معتصم، فضحتنا أنت وهيام في الحارة، صرنا أضحوكة الناس.

◆

عاصي الذي لا يضحك وجهه للرغيف السخن، عاصي الذي لا يبتسم منذ قتل زوجته قال إن والدي معقد، قال إن كل الكبار يحسبون حساب رأي الناس، وما سيقوله الناس، وأنتما متحرران من هذه العقد، في أوروبا تركب العجائز دراجات هوائية، في أوروبا الناس غير معقدين.

ضربت قدمي في الأرض، امتعضت من القول إن والدي معقد، والدي يبقى والدي، أنا لا أحب أن يصفه أحد بأنه معقد. خصوصاً الذين يقتلون زوجاتهم. فالذي بيته من زجاج ينبغي أن لايرمي الناس بالحجارة. قلت إنه تجاوز الخط الأحمر حين قال إن أبي معقد، وإنني لن أسمح له بتجاوز الخط الأحمر.

لكن أمثال عاصي لا يبصرون الخطوط الحمراء. ماذا أتوقع من رجل يلعب دور ميت؟ أصلاً، اتخذ قرار وضع حد لحياته معنويا حتى يتجاوز كل الخطوط الحمراء، دون أن يحسب حساباً لأحد، لا لكبير ولا لصغير، ولو لم يكن مجنوناً لما اتخذ قراراً بالموت، فالذي يقرر وضع حد لحياته ينتحر، أما عاصي فقال ماذا؟ قال إنه قرر أنه ميت، بل وحدد يوم وفاته وساعتها. أعتقد، إذا لم تخني الذاكرة، أن سنة كاملة مرت على موته.

لكنه يضحك على ذقنه وذقوننا، إذ كيف يموت الإنسان دون أن يموت؟ وكيف يموت قبل أن يموت؟ إنني أخاف هذا الرجل، رغم أن معتصم يعتبره صديقه الشرعي والوحيد. لكنه قتل زوجته، وخالتي أم عدنان قالت إنه قتلها عمداً وعن سابق تصور وتصميم، وليس كما زعم، من أنهما كانا في رحلة صيد، وأنه أطلق النار على عصفور فطاشت الرصاصة واستقرت في رأسها، رأس سهام. هذه رواية تفوح منها رائحة الكذب الأسود. لو كانت كذبة بيضاء لابتلعتها وهضمتها، لكنها كذبة سوداء. القضية قضية قتل، لا يوجد كذب أبيض في قضايا القتل.

◆

وأقبل متجهماً كعادته، يرافقه معتصم، قال لي إن الخطة جاهزة. فأضاف معتصم : إن صديقه عاصي الذي يسميه العقل المدبر، أعد الخطة، إن سكان البيت الباذخ سافروا إلى أمريكا أمس وإنه ناول الحارس مبلغاً كبيراً من المال، وقال له إنه لا يرغب في أن يسرق البيت، يرغب في أن يقضي شقيقه وعروسه شهر عسلهما فيه. قال إنه استخدم معه سياسة العصا والجزرة. قال له إذا رفضت العرض، فلن تأخذ قرشاً، وسوف أخبر الشرطة أنك تجاوزت مدة الإقامة منذ زمن بعيد، فيرحلونك بعد أن يعتقلوك ويبهدلوك. قال إن الحارس اضطرب، وقال:

- إذا أقسمتم أنكم ستستخدمونه لقضاء شهر العسل، لا للسرقة وأعمال مخالفة للقانون والدين، فلا مانع لدي.

دفعه معتصم بحذائه دفعة هينة، فسقط على الأرض. وضع يده عى خنّاقه، وقال وهو يشد قبضته:

- أقسم بشرف أمك أننا لن نستخدم البيت إلا لأغراض شريفة.

كان الرجل يريدهما أن يقسما على القرآن، لكنه بعد أن أحس بأن روحه بدأت تتأهب للطلوع خارج جسده الهزيل بعد أن قبض معتصم على روحه، وافق أن يكون القسم على علاقة بشرف أمه، ثم قال:

- والمصاري؟

ناوله عاصي مبلغاً كبيراً من المال، ووعد أن يعطيه مبلغاً أكبر حين ينتهي شهر العسل. الحارس قال إن صاحب البيت وزوجته

وابنتهما وابنهما الذين ذهبوا جميعاً لحضور احتفال تخريج ابنهم من إحدى الجامعات الأمريكية، سيبقون هناك شهراً واحداً. كذلك، فهو يصر على أن نختزل شهر العسل، فيغدو أسبوع عسل. كما اشترط ان يظل في موقعه حارساً، حتى يستيقن أن البيت لن يستخدم لأغراض أخرى.

لكن عاصي يبالغ في الحذر والحيطة، لم يثق بالحارس، قال له إنه سيزجه في غرفة القبو ويحبسه فيها حتى لا يحنث ويخبر الشرطة. طار عقل الحارس قال إنه لن يعطي عاصي المفتاح إذا حبسه، وأخبره أن كل الغرف في الداخل لها مفاتيح، وهو الوحيد الذي يعرف أين هي المفاتيح، وأنه لن يسلمها لهم إذا حبسوه في القبو.

◆

في اليوم المحدد، تحولنا بالتواطؤ مع العتمة إلى أشباح: أنا وعاصي ومعتصم واللص المحترف الذي التقاه معتصم في السجن، فامتدت بينهما علاقة متينة حميمة، قبل أن نخطف الحارس، أو بالأحرى قبل أن يخطفه معتصم بقوته البدنية الخارقة، قام اللص المحترف باقتحام نافذة، بقدرات محترف، ثم فتح لنا الباب من الداخل، ثم سعى معتصم إلى الحارس النائم وخطفه، وزجه في القبو، وقيده. حمله كما يحمل الرجل ريشة! يا إلهي، لم أر في حياتي أقوى من معتصم!

وهكذا بدأنا شهر العسل، أو أسبوع العسل. لكن متى حدث ذلك؟ لا أذكر على وجه التحديد، حتى أنني الآن لست على يقين

من أنه حدث فعلاً، أم أنها الخطة التي ستحدث في المستقبل. لكن ربما تستعيد ذاكرتي شحنتها الجديدة بعد خمس دقائق، فأتذكر بدقة تفاصيل ما حدث، أو ما سيحدث؛ لأن ذاكرتي تخبو حتى تكاد تتلاشى، ثم تعود فجأة إلى كامل عافيتها؛ بعد ربع ساعة أو ربع يوم أو ربع شهر أو ربع سنة.

ذاكرتي مثل امرأة مزاجية، تلعب دور امرأة فاضلة حيناً، ثم يعنّ لها، فتنقلب للعب دور غانية، لا هذا المثال ليس دقيقاً، إنها مثل مارد زج نفسه في قمقم، يخرج من قمقمه حيناً، ويعود إلى قمقمه أحياناً، أو مثل سلحفاة، عقلي سلحفاة، ذاكرتي رأس سلحفاة، أحياناً تخرج السلحفاة رأسها فأتذكر، وأحياناً تخفيه فأنسى.

إنني أحب ضرب الأمثلة، وأحب معتصم، وأحب المغامرات، ولا أحب البرد، ولكن ذلك لا يعني أنني أحب القيظ.

معتصم

لا يأخذ أحد شعري على محمل الجد، يقولون إنه ليس مفهوماً. لماذا يفهمون أدونيس إذن؟

لقد سخّرت لي السماء قوة بدنية جبارة وقدرة فذة على الإبداع الشعري. لكن هذا العالم لا يفهم إلا لغة القوة. لغة الشعر لا يعترف بشرعيتها، أما لغة عضلاتي فيعترف بها ويفهمها ولا يناقشها (أقصد الآخر). وقد بدأت في صغري أرسم، ولما كبرت صرت شاعراً. العلاقة بين اللون والكلمة الشعرية علاقة ملمس وعلاقة رائحة؛ لأن اللون يعتمد على البصر وموسيقى الشعر الغنائي تعتمد على السمع. إذن هذه المقدمة المنطقية تقود إلى استنتاج واضح: ثمة حاسة ثالثة أو رابعة تجمع بين الحاستين، وأنا ميال لترجيح الرائحة على الملمس، مع أن ملمس بعض المفردات خشن، وبعضها رقيق كالحرير.

ومع ذلك، فالخصال، والسمات المشتركة بيني وبينها جزيلة غزيرة حتى أن الشبه يكاد يلتبس عليّ أحياناً، ولولا أنها أنثى وأنني ذكر، ولولا أن شعرها جعدي أحمر، وشعري أسود ناعم لحسبت أنها أنا، وهذا أمر طبيعي.

أليست هيام ابنة عمي أو عمتي؟ لست على يقين الآن لأن ذاكرتي مطفأة؛ فالمستأجرون في الطابق العلوي الذي أملكه خرجوا وأطفأوا الأنوار. وأبي يقول لي بين الحين والآخر إنني أجرت الطابق العلوي. يقول: أحياناً.. أحس أن طابقك العلوي مستأجر. ولم أفهم أنه يسخر مني، ويعني أن عقلي ليس لي، أو أنه ملكي لكنني لا أقيم فيه، لأنه مستأجر وبهذا المعنى يكون عقل رأسي أشبه بغرفة الفندق، يشغلها غرباء أحياناً، وتبقى شاغرة أحياناً، وحين تكون شاغرة، أقيم أنا فيها.

لكن الناس اعتادوا على غيابي وحضوري وأنا جالس في مكاني لا أزول ولا أميل. لكن الناس فضوليون، إنهم يمطرونني بوابل من الأسئلة عن صديقي عاصي. فهم يعرفون أن عاصي هجر أصدقاءه جميعاً بعد مقتل زوجته سهام وإعلانه بعد ذلك عن موته.. أقصد يعرفون أنه احتفظ بي أنا صديقاً وحيداً دون العالمين. يسألونني:

- هل قتلها عمداً؟
- هل قتلها خطأ؟
- هل خانته وهو في المعتقل.. فقتلها؟
- هل كانت تعاني من مرض خبيث، فناشدته أن يخلصها من

عذابها.. قادها إلى مزرعته وأطلق عليها رصاصة الرحمة؟

لماذا يريد كل الناس أن يقفوا على تفاصيل هذه الحكاية؟ هناك حكايات أهم مثل ارتفاع الأسعار، والغلاء، والقضية الفلسطينية، ومشكلة ازدحام السير، ومشكلة مكب النفايات التي يقال إنها سامة.. والتطرف.

لكنهم لا يحفلون بالقضايا الكبرى، ويعشقون النميمة. وحين ننفذ خطتنا الجهنمية، ونهرب أنا وهيام لنتزوج رغم أنف رب أسرتي ورب أسرتها، سينسون قضية عاصي وزوجته سهام، وينهمكون في اصطياد الشائعات عن حكاية فرارنا وعشقنا وزواجنا. وإذا لم تنجح خطتنا السلمية في الهرب والزواج، فسوف أتزوج هيام بالقوة، سوف أفرض على أهلها أمراً واقعاً، سوف أضطر إلى استخدام قوتي البدنية الجبارة، سوف أضطر للتخلي عن التحلي بالصبر، والصدر الواسع.

هيام صدرها واسع، لكنني لم أره حتى الآن. مرة، حين هربنا إلى السينما، حاولت أن أقيس حجمه بأصابعي فصفعتني، لكنها لم تغضب.

نعم سأفرض عليهم الأمر الواقع بقوتي الجبارة. حتى حواسي جبارة، إنني أسمع نبض الأرض حين أرقد على العشب، أصغي إلى زفيرها وشهيقها. الأرض تتنفس بانتظام، لا أحد يصدقني، لم يتعلموا من حكاية زرقاء اليمامة التي حذرت قومها من هجوم الأعداء الذين تقمصوا الشجر. ماذا كانت ردة فعل قومها؟ اتهموها بغرابة الأطوار، لم يصدقوها، تماماً كما يرموننا، أقصد أبي وعمي،

بالغرابة.. أنا وهيام. أدفع نصف عمري لأعرف ما الذي يقصدانه حين يقولان إنني غريب، وإن هيام غريبة.

اسألهما إن كانا يقصدان غرابة الأطوار، ينفيان. يقولان أنت غريب الأطوار، لكنك لست غريب الأطوار فقط، أنت أغرب من غريب الأطوار. ليغربا عن وجهي، هيام لا تجدني غريباً، تقول إنني نموذج للعبقرية. وعاصي، لماذا هجر كل أصحابه وحافظ على علاقته بي فقط؟ الجواب واضح: لأنني الوحيد القادر على فهمه وتفهمه وعدم الحكم له أو عليه. لماذا؟ لأنني أعقل أصحابه، أكثرهم واقعية. فكيف يتهمونني بالغرابة؟ ثم هل الغرابة والغريب يعنيان شيئاً واحداً.

أبداً، لا أعتقد ذلك. الغرابة شيء والغريب شيء آخر. الغرابة تعني العلاقات الخفية بين مفردات القصيدة. أما الغريب فيعني التمرد أو الثورة على الواقع، مثلما كان عاصي يحلم قبل أن يستنكر ويعترف ويخرج من السجن ويقتل سهام.

وإذا كان لا بد من تعريف منصف لغرابتي فهي ليست قلة عقلي كما قالت أمي مرة وهي في حالة انفعال، ثم عادت وقالت إنها لم تقصد أنني قليل عقل وأنها كانت منفعلة، فزل لسانها. أقول إذا كان لا بد من تعريف عادل لغرابتي فهي كثرة عقلي، لا قلته. طبعاً، هذا إذا وافقنا من حيث المبدأ على أنني غريب. وأنا لا أنكر أنني غريب، لكن غرابتي ليست سلبية، بل إيجابية. فلو كان غيري يملك القوة البدنية التي أملكها، لاستخدمها بطريقة تؤمن له حياة باذخة لكنني لا أستغل ما سخرته لي الطبيعة في اتجاه معاكس

للطبيعة. ينبغي أن أتوقف عند هذه العبارة التي قلتها لنفسي تلقائياً، هكذا يأتي وحي الشعر. هذه عبارة شعرية: لا أسخّر قوتي التي سخرتها الطبيعة لي ضد الطبيعة. هذا هو الشعر الحديث، والرواية أيضاً.

الرواية التي اقرأها مثلاً، تتحدث عن رجل غريب يقوم برحلة، ولأن لغتي الإنجليزية سكر خفيف، أو لا، الرواية في أصلها معقدة، وزادها المترجم الإنجليزي تعقيداً لأنه ترجمها بتصرف أو ترجمة حرفية، فإنني لست على يقين من الغاية النهائية لهذه الرحلة. إنه يقوم بمشوار للوصول إلى هدف معين. أحياناً أفهم أن هذا الهدف هو بيت جده، وأحياناً أفهم أن هذا الهدف هو بيت ابنه.. أو حفيده. وبطل الرواية هو الذي يتكلم فقط.. طوال الوقت. لا أدري إذا كان يكلم نفسه، أو يكلم غيره. لكنني أعتقد أن الآخر لا يرد ولا يحاور. فإذا كان الآخر نفسه، فهي لا ترد، تتركه يكلمها ويسألها وهي لا ترد ولا تكترث ولا تجيب. وإذا كان يكلم شخصية أخرى، فإن هذه الشخصية ملتزمة بالصمت أيضاً.

أعرف أشخاصاً يجيدون الإصغاء ولا يجيدون الحديث. ومرة، في أمريكا، على ما أذكر، اشتغل أحد أصدقائي غانية في ملهى، مهنتها الاصغاء لهموم ومشاكل وأحلام الزبون. طبعاً الزبون لم يكن يعرف أن الغانية رجل لا امرأة، لأن الرجل يتحرج من البوح لرجل آخر. طبعاً كان صاحبي يتنكر مثل امرأة، مثل الحياة، الحياة حفلة تنكرية.

قلت لهيام إننا بتنا كائناً واحداً. فراش القصر الذي اختطفناه

وثير. قالت وهي تدور في القصر وتتأمل فخامته إن صاحبه اهتم اهتماماً استثنائياً باذخاً بصالونات الضيوف، وأهمل غرف النوم. ثم التفتت إلي وقالت إننا لسنا كائناً واحداً، ولا ينبغي أن نكون كائناً واحداً؛ لأن الكائنين أغنى من الكائن الواحد. وقالت إن الكائن الواحد يختزل عدة كائنات، وهذا ظلم.

ودعتني إلى مرافقتها في جولة أخرى في البيت، فأبيت دون أن أنطق بحرف، كنت راقدا على السرير الفخم مثل قبة هامدة. سألتني هيام إن كان خيالي محشوراً في قمقم السرير فقط.

قلت لعاصي إنني لست في جيبته الصغيرة. فقال وهو يضحك إنه لا توجد جيبة صغيرة في سرواله، وإن "موضة" الجيبة الصغيرة اندثرت من زمان، لكنها لم تضحك.

قلت لعاصي إن بطل الرواية التي أقرأها وأترجمها يمشي مشواراً صوب أمه أو جده أو ابنه. فقال عاصي إن الإنسان يمشي مشواراً واحداً في حياته: من المهد إلى اللحد.

ثمة أيام خضراء تتحسن فيها ذاكرتي، وثمة أيام ضبابية شتائية تختلط فيها الأزمنة والأمكنة والوجوه والأسماء في رأسي.

اليوم مثلاً، يوم خريفي: أي يتراوح بين الأيام الخضراء الذهبية والأيام الداكنة الضبابية.

كنت أقف خلف السور، السور الذي يفصل بين بيتنا وبين هيام. هي هناك وأنا هنا والسور بيننا. قالت إنها ترغب في قطعة من الآيس كريم الذي أشتهيه. قالت إنها غير مطمئنة لمخطط الهرب. قالت إنها لا تثق بعاصي لأنه قتل زوجته، والذي يصطاد زوجته

كما يصطاد عدوه حين يقف على غصن شجرة، لا يوحي بالثقة. ترددت، هل أحكي لها أم أكتم السر الذي أقسمت على كتمانه. قلت لنفسي ألمح تلميحاً فاللبيب من الإشارة يفهم، وهكذا ألتف على قسمي دون أن أنقض العهد وأحنث.

قلت إن سهام، زوجة عاصي، كانت ترغب في أن يقتلها عاصي.

احتجت هيام وقاطعتني وقالت إنها لن تنفذ الخطة وتهرب معي، لنقيم شهر عسل في بيت عاصي، إلا إذا حدثتها بصراحة عن عاصي؛ لأنها لا تطمئن لشخص مبهم، للآخر المجهول فما بالك بشخص قتل زوجته لأنه سمع إشاعة، مجرد إشاعة أنها تخونه بينما هو قابع وراء قضبان السجن.

قلت لها إنه لم يقتلها لأنها تخونه، قتلها لأنها كانت مصابة بمرض عضال. كانت تكتب له الرسائل، وتستغيث به. تقول: تعال.. وضع حداً لألمي وعذابي، لم أعد أطيق المعاناة، أعرف أنك الوحيد، من بين كل أحبتي، القادر على فهم عمق معاناتي، والوحيد القادر على وضع حد لها.

الموت البطيء أحمر، أي أنه حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة والتعذيب اليومي، ثم حين تنتهي مدة الحكم، يخرج السجين، لا إلى الحياة الحرة الطليقة، وإنما إلى جدار الإعدام. كانت معتقلة وتتعذب. والأطباء قالوا إنها ستعيش ثلاث سنوات، تعذبها ثلاث سنوات، تريها نجوم الظهر، تقلع أظافرها، تنتف شعر رأسها، تقتلعه اقتلاعاً، تعذبها بالكهرباء، تذوبها رويداً رويداً بالأسيد، تقطع أطرافها،

الثلاثاء تبتر قدمها، وهي مصلوبة على جدار. الأربعاء تبتر يدها اليسرى وتقذفها إلى النار أو القمامة، الخميس تقطع أذنيها.. وهكذا، عذاب مروع بشع بطيء.

وعاصي، هذا الرجل المشوق الأخضر، الذي يشبه ربيع النور، قرر أن يخرج من السجن، ليضع حداً لحياتها، أقصد لعذابها. لماذا تقضي ثلاثة أعوام في الأشغال الشاقة والتعذيب اليومي، ثم ينفذ حكم الإعدام بها؟ لماذا لا ينفذ حكم الاعدام فوراً، كي تتجنب العذاب المذل؟

كان مرضها نادراً. بدأت تفقد الذاكرة، ثم القدرة على تمييز الناس. هل تعلمين ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن أي ابن حرام بلا قلب قد يستغلها. قد يقرع الباب، ويقول لها أنا عاصي عدت من المعتقل مشتاقا إليك. سبعة أعوام من الاعتقال والحرمان والكبت، أريد أن أنام معك الآن، هذه اللحظة، قبل أن نتصل بالناس ونخبرهم أن الجهات المعنية أطلقت سراحي، قبل أن أستحم، قبل أن نصل غرفة النوم، أريدك الآن فوراً.. هنا وراء الباب. وقد تصدقه المسكينة، فعقلها بدأ يذوي. منذ عادت من أمريكا منذ أنهت دورة الوقاية من الحرب الجرثومية والأسلحة الكيميائية، ألم تسمعي بمرض حرب الخليج، حرب عاصفة الصحراء؟ كانت السحابة السوداء بعد قصف مستودع الأسلحة الجرثومية والكيميائية، تغطي الشمس، تحجبها، الليل تحول إلى ظلام، والظلام شع مثل ضوء الشمس، شع في كل الاتجاهات حاملاً ذرات جرثومية كيماوية. وسهام هناك تدرس أعراض مرضى حرب الخليج، أم المعارك، فانتقل إليها فيروس

هذا المرض الغامض المرعب.

الجراثيم الكيميائية انتشرت طيراً أبابيل غطت سماء المنطقة. كل طير يختار ضحية، يصطفي فرداً من بين كل ألف فرد. وقد اختار طير سهام من دون النساء وضمها إلى آلاف الرجال، عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين والبريطانيين وعشرات الآلاف من البدو الرحل الذين يرتحلون من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والكلأ، ورماها بجراثيم تحمل فيروس الأسلحة الكيميائية. وبدأ جلدها يتساقط.. وشعرها يتساقط، ونظراتها تتدفق وتنهمر حتى نضبت عيناها. صارت عيناها بلا نظرات. أتذكرين عينيها الواسعتين اللوزيتين الفاتنتين؟ صارت عيناها بلا نظرات. لم تعد قادرة على الرؤية. ما جدوى العين غير الضريرة، إذا تسربت نظراتها كلها، وباتت خاوية بلا نظرات، مثل بئر ماء. وكانت تكتب له عن مرضها الغامض، عن تدهور حالتها المؤلمة من سيئ إلى أسوأ، قالت له إن حالتها أسوأ من حالة امرأة في الجحيم. ناشدته أن يقتلها كي تذهب إلى الجنة، تنتقل من الجحيم إلى الجنة، يحملها من جحيم الأرض إلى جنة الأتقياء الذين يخافون ربهم. وسهام امرأة فاضلة تصلي وتصوم ولا تكذب ولا تسرق.

وقرار عاصي كان صعباً شديد التعقيد. تصوري، ان يختار العاشق النزول عند رغبة الحبيب، فيقتله، كي يتحرر من جحيم الأرض وينتقل إلى فردوس الموت. الموت سيضع حداً لآلامها، ينقلها من أرض العذاب الصاخب إلى قبر السكينة.

طلب من إدارة المعتقل نقله إلى زنزانة انفرادية. تصوري، لا

يمكن لأي معتقل أن يطلب نقله من زنزانة جماعية يتسلى فيها مع رفاقه إلى زنزانة انفرادية، حيث الوحشة سوداء، والعزلة ليلكية، ظل قابعاً في الزنزانة الانفرادية نصف سنة كاملة. يتأمل.. تتخطفه أمواج الحيرة في لجة الدجى اليائس، بعد ستة أشهر، وبعد أن تكاثرت رسائل الاستغاثة، وبعد أن تفكر فأطال التفكير، طلب مقابلة مدير المعتقل.

دخل إلى غرفته صامت الوجه، بلا ملامح، لم يرد على تحية مدير المعتقل، كان في عالم آخر، طلب ورقة وقلماً ورفض عرض مدير المعتقل الجلوس على كنبة. ظل واقفاً مثل رمح منكسر، أو بالأحرى مثل رمح شامخ انكسر. تناول الورقة البيضاء، وقع على طرفها السفلي وقال بصوت قاتمٍ داكن لمدير المعتقل:

- هذا توقيعي على بياض، اكتبوا ما تشاؤون، إعترافاً، استنكاراً، نقداً ذاتياً، رسالة استعطاف تقطر ذلاً لوزير الداخلية تطالبه بالإفراج عني، افعلوا ما يحلو لكم، لكن أخرجوني من هذا الجحيم.

صعق مدير المعتقل! فعاصي الرجل الممشوق الذي لا تنحني له هامة، عمود الكبرياء.. لا يقدم على عمل كهذا إلا لسبب قاهر لا تطيقه النفس البشرية. حاول أن يفهم، فكان عاصي يرد باقتضاب على كل سؤال:

اعتبروا أنني هزمت من الداخل، انكسرت، ألست إنساناً يجوع ويشرب ويتنفس وينتصر ويصمد وينهزم وينهار.

خلال أسبوع كان في بيته طليقاً حراً. وبعد شهر من التردد،

لم يقو على احتمال معاناتها التي بات يراها بأم عينه سواد الليل وبياض النهار، دعاها إلى رحلة صيد في مزرعته. وهناك أطلق عليها رصاصة الرحمة من بندقية الصيد، وادعى أنه قتلها خطأ، وأن رصاصته المسددة نحو عصفور، طاشت فاستقرت في رأسها.

كنت أحكي بلهجة تنم عن نضجي، عن بلوغي سن الرشد. نعم، هذه أول مرة أفشي السر الذي لا يعرفه سوى الله وعاصي وأنا. وكلما فكرت في المشهد الأخير، بل في هذه القضية العجيبة، تحولت من طفل رضيع إلى رجل متزن راشد عاقل، أو من شيخ خرف إلى حكيم ناضج بلغ محطة الكهولة، فخلع معطف الرعونة، وانتزع ثوب الطيش، وجلس عارياً لا يخاف عيون الناس ولا ألسنتهم. فالعري هو اتحاد الباطن بالظاهر، أو تجلي الخفي في العلن؛ لأن الميت لا يخشى من العري، مثل الغريق الذي لا يخشى من الحريق، لهذا قتلتها؛ لأنها أصيبت بذلك المرض الغامض الذي جعل الأسماء والوجوه والأشياء تختلط عليها، فأحبت عبد الكريم، عازف البيانو، وقالت لي انها تحبني مثل ما تحب شقيقها، لكنها بلا شقيق. وهذا يعني أنها لا تحبني، ونفذت خطتي. أخذت مفتاح البيت من عاصي وهربنا، تسللنا خلسة، لم يشعر رب أسرتي أو رب أسرتها بهربنا، وطرنا إلى بيت عاصي. عاصي اخلى البيت لنا، وقال انه سيقضي شهراً في بيروت؛ لأنه مهندس، وعلى المهندس العربي إعادة إعمار ما هدمه المهندس العربي.

أخذ المحقق رأسه بين يديه وسألني. قال:

- يا معتصم هل قتلت سهام لأنك اعتقدت وجود علاقة

سرية غرامية بينها وبين عبدالكريم الموسيقار؟

أنا قلت إنني لست معتصم، أكدت أنني عاصي. لكن الشبه بيننا معجزة، كأنني توأمه وهو توأمي. ولفت انتباه عطوفة الضابط إلى التشابه في حروف اسمينا: «ع.. ا.. ص.. ي» و: «م.. ع.. ت.. ص. .م» قلت إن سهام زوجته كانت تخونه مع عبدالكريم، لذلك قتلتها. كانت تكتب له رسائل اعترافات إلى المعتقل. تصور.. العاهرة، تفاخر بأنها مغرمة بعبد الكريم، وعاصي في المعتقل، مثل أسد في قفص. تصور الإحساس بالعجز، تخيل زوجتك تكتب لك أنها مغرمة برجل آخر، مستغلة وجودك عاجزاً مكبلاً بعيداً في سجن صحراوي ناء، تصور.

كنت في تلك الأيام أقرأ رواية باللغة الإنجليزية، التي ألم بها، يعني بوسعك أن تقول انني كنت أعرف الإنجليزية مثل معرفتي بالناس: أعرف ظاهرهم ولا أعرف باطنهم. وهذا يعني انني لا أكاد أعرف سوى خمسة بالمئة من عالمهم.

وفهمت أن بطل الرواية يكتشف أن حبيبته تعشق الموسيقى، وبالتالي، بالضرورة، تعشق الموسيقيين وجارنا عبدالكريم موسيقار وأنا قررت ترجمة الرواية إلى العربية.

نفذنا المخطط وهربنا. كان بيت عاصي حاضراً شاغراً ومفتاح البيت مع معتصم. قال لي حين دخلنا غرفة نومه إن معتصم يعتبر هذا السرير قبره، إنه يقضي ثلاثة أرباع يومه مضطجعا هنا، مثل جثة هامدة؛ لأنه يخاف الانتحار، حاول وفشل. الطبيب قال له إنه محظوظ؛ لأن تسعين بالمئة من الذين يقدمون على الانتحار لا

ينتهون في قبر، وإنما في مستشفى، ولا ينتهون إلى الموت، وإنما إلى شلل أو ارتجاج في المخ، أو فقدان البصر. قال الطبيب إن وضع حد للحياة أصعب من الولادة بألف مرة، وأحس أنه معتقل. قلت له إنني لا أحب الحديث عن الموت، قلت لها على عيني، اختاري أي موضوع لأحدثك عنه، فأنا موسوعة تمشي على قدمين. قلت له: الموسيقى، إحك لي عن الموسيقى. قلت لها انني لن أحكي لها عن الموسيقى، وإنما سوف أعزف لها سيمفونية خالدة. قلت ولكن أين الأوركسترا؟ قلت أنا «المايسترو» وجسدك أوركسترا راقية رفيعة خرجت من معطف «بتهوفن». تضرج وجهي ذكرته بأنه يناديني دائماً:

- يا ملاكي.

قلت هذا صحيح، أنت ملاك، أنت ملاكي. قلت كيف ستعزف على آلاتي الموسيقية وأنا ملاك؟ وتضرج وجهي، كانت رائحة الكلمات الخارجة من فمي تشبه رائحة البحر الأسود. صحيح أنني لم أسبح في البحر الأسود، ولكنني رأيته على الخريطة، وشممت رائحته، فاكتشفت أنها تختلف عن رائحة البحر الميت. حككت أنفي بصدرها، وقلت إن التواصل بين جسدينا في ليلة الدخلة هذه، ليلة زواجنا الأولى، ستكون تواصلاً موسيقياً. قلت له إنني لا أفهمه. قال إن التواصل بين الناس أشكال وألوان: لغة الكلام، لغة العيون، لغة ممارسة الجنس، ولغة الموسيقى، ولغة الرقص الخ...

ونمنا بعد أن عزفت على جسدها بأنفي، تنشقتها وتنشقتني.

فالموسيقى لا ترى بالعين، بوسع المرء أن يبصر الموسيقى بأنفه. الذين يبصرون الموسيقى بآذانهم، لا علاقة لهم بعالم الموسيقى. الإنسان يشم الموسيقى كأنه يشم الكوكائين، فيرتحل إلى فضاءات النشوة.

قلت له لماذا يفتش مكتبة عاصي؟ قلت لها إنني أبحث عن رسائل سهام، تلك الرسائل التي كانت ترسلها له إلى المعتقل، كانت تدسها في ظرف وتكتب العنوان وتهيب بي أن آخذ الرسالة وأضعها في البريد. وأخذت الرسائل- عشرات الرسائل- كانت تدور كلها عن دروس الموسيقى، وعن عالم الموسيقى، وعن مهارة عبدالكريم في العزف.

ومرة رأيتها، لا أتذكر إن كنت أرى مناماً أم أرى مشهداً واقعياً حقيقياً، مع أنني أرجح حلم اليقظة، أقصد أنني رأيتهما صدفة في يقظة الحلم.

كان يعزف على البيانو بكل كيانه، لا علاقة له بالأرض، ولا بالحاضر، تضرب أصابعه على مفاتيح البيانو بعنف، وخصلات شعره تتطاير، وعضلاته المفتولة تتقلص ثم تنبسط، ثم تنقبض، ثم تنبسط.

وهي تجلس خلفه، وهو لا يحس بوجودها لأنه ليس هنا، ليس في هذا العالم. الكائن الجالس على مقعد البيانو شبح، عباءة عبدالكريم، ظله. أما هو، فليس هنا، انه يحلق على ارتفاع فلكي. وعيناها - أقصد نظراتها- نظراتها تتحسس عضلاته المفتولة المتقلصة المنبسطة، ويبدأ التواصل بينهما من طرف واحد، من طرفها. معتمدة على نظراتها، نظراتها الشرهة تتحسس ظهره شبه

العاري، تتحسس أصابعه التي فقدت رشدها وهي ترقص على مفاتيح البيانو، ونظراتها ترى مفاتيح البيانو جسدها، واللهاث والعرق يتصببان.

◆

أيام زمان حين كنا نلعب في الحارة، كنا نسمي أنفسنا عصابة الفرسان الثلاثة، وحين توغلنا في المراهقة غيرنا اسم العصابة، صار اسمها « عصابة الغرباء الثلاثة ». وهنا ارتكبنا خطأ مميتاً؛ إذ كان ينبغي أن نسميها عصابة الثلاثة غرباء أو.. غرباء ثلاثة.. لأننا مغتربون، نحن الثلاثة هيام وعاصي ومعتصم.

◆

قلت إنني قتلتها انتقاماً لأخي في الله، أقرب إنسان على الأرض إلى قلبي بعد هيام، أقصد عاصي. الموسيقى أرقى أنواع التواصل، وعبدالكريم علم سهام الموسيقى ، وراحا يعزفان في صالة بيت عبدالكريم وستائر الصالة مفتوحة. يا للوقاحة يا للخسة، بلا خجل ولا حياء يتواصلان وواجهة الصالون عارية، ستائرها مفتوحة، والمارة يبصرون كل شيء: يبصرون الخيانة بعيونهم، ويسمعون الفضيحة بآذانهم.. فللفضيحة أشكال وألوان: أحدها يتجلى في نغم معين، لحن محدد.

◆

لايوجد تفسير لضمور ذاكرتي وذاكرة هيام معاً، سوى

السحابة الجرثومية الكيميائية السوداء، السحابة التي ارتفعت مثل مارد جبار بعد أن قصفت طائرات أمريكية المستودع العراقي الخطير.

فنحن لم ننفرد بأنفسنا دون رقابة شقيقها الصغير، إلا حين هربنا من الكويت إلى بغداد إلى عمان ، شقيقها الصغير العفريت ذو العينين الصقريتين كان خلفنا وأمامنا وفوقنا وتحتنا فاتحاً حواسه شاحذاً راداره الجواني، مع أنها ابنة عمي. لست على يقين من أنها ابنة عمي، لكنني أعتقد انها ابنة عمي. لماذا نحن بالذات؟ أنا وهي؟ ولماذا قبل حرب الخليج الثانية أو بعدها (الأعراض بدأت تظهر بعدها) المرة الوحيدة في حياتنا التي، التي ماذا؟ التي اختليت بها في قفر تغطيه العتمة، ومددت يدي، سألتني لماذا لا أستطيع الصبر حتى الصيف القادم؟ في الصيف القادم سوف نتزوج. قلت إننا شبه مخطوبين. وإننا وحدنا في كون معتم. قلت إنها فرصة كي نطلق جسدينا على سجيتهما. قاومت.. قاومت مقاومة رفع عتب، مقاومة من يقول كلمته ويمشي، مقاومة رمزية لسجل التاريخ. ثم تحولت إلى كتلة من نار اشتعلنا، اندلعت الحرائق في مسامنا، ثم سمعنا ذلك الانفجار العجيب. ظننت للوهلة الأولى أن قلبها انفجر، وأن أذني كانت فوق قلبها الذي انفجر. وحين نفضتنا الأرض ورفعتنا ثم هوت بنا، قلت إن هيام قبيلة من النساء المتعطشات للحب. قلت إنها تفقد عقلها حين تمارس الحب، تتحول إلى قنبلة ذرية. و لم أعرف عندئذ، أن الطائرات الأمريكية قصفت المستودع المسموم.

المهم أن الروائي (م.ر) كتب رواية باللغة الإنجليزية أو بلغة

أخرى ترجمت إلى الإنجليزية. المهم أن الروائي (م.ر) لم يجرؤ على كتابة الرواية بالعربية، مع أن لغته الأم العربية، وهذا لا يعني بالضرورة أن أمه عربية.

ماذا تعني عبارة « لغته الأم »؟

المهم أنني أجد الجرأة الكافية لترجمة الرواية إلى العربية، غير عابئ بكواتم الصوت وسكاكين الذبح. لكن المشكلة تكمن في فهمي للنص، وتمكني منه.

لاشك في أن الرواية تدور حول عاشقين غريبين (غير سويين على الأغلب) وتدور حول محور آخر، وهو محور الوقائع الغامضة المحيرة التي تكتنف مقتل المرحومة سهام على يد زوجها المناضل السابق عاصي في رحلة صيد، وعن طريق الخطأ.

كنت أركض، ألهث، أدور في حلقة مفرغة، ساعياً لطمس ملامح الجريمة، مستغلاً ضمور ذاكرة الخريف وتفاقم خيال العتمة.

هل كانت معاشرتي لسهام في يقظة الحلم أم في الواقع؟ هل ذهبنا فعلاً إلى البحر الميت، واستأجر كل منا غرفة منفصلة ثم قضينا الليل الأحمر متضامين؟

◆

الأربعاء:

ماما منعتني من تناول المزيد من الشكولاتة، فحردت، غلقت باب غرفتي بالمفتاح من الداخل، وهي تقرع وتناشدني أن أفتح الباب وأنا حردان ولن أفتح الباب حتى أعاقبها لتحسّ أنها

جرحتني. ماما قالت من وراء الباب إنها انتزعت علبة الشكولاتة من بين يدي، كي لا تتلاشى شهيتي وقت الغداء، لم تناشدني في البداية.

في البداية نهرتني من وراء الباب وهي تقرع بقوة وزجرتني بعنف، فبولت على الباب من الداخل، سمعت أمي صوتاً يرشق الباب بسائل ما، سألتني ماذا أفعل. قلت إنني أبول على الباب، لأن كلماتها القاسية تعبر من وراء الباب المقفل إلى أذني وتجرحني من الداخل بشفرة، شفرة مثل شفرة الحلاقة، حادة. الدم ينزف من الداخل، لا أراه لأنه من الداخل، بدأت ماما تصيح وتنتحب. أعلنت أنني انتصرت عليها بجردي، لم تستخدم هذه الكلمات حرفياً «النصر» و «الهزيمة» لكنها أذعنت. قالت إنها ستعطيني علبة الشكولاتة إذا فتحت الباب. قلت إنني أريد وعداً بمباركة زواجي من هيام. تحولت من لهجة المناشدة الرقيقة الناعمة، إلى لهجة صارمة حازمة قالت:

- مستحيل، أنتما غريبان، وإذا تزوجتما فسوف تحتاجان إلى من يرعاكما، وحين تنجب هيام سيكون ابنك متخلفاً مختلفاً. هل ترغب في أن يكون ابنك الذي سيحمل اسم أبيك مختلفاً متخلفاً؟ قلت من وراء الباب إنني اقبل بأن يكون ابني مختلفاً، وحاستي السادسة تؤكد لي أنه سيكون مختلفاً، لكنه ليس متخلفاً. ونبهت ماما إلى الفرق الكبير بين «متخلف» و «مختلف». صحيح أن حروف الكلمتين متشابهة، لكن المعنى مختلف ثلاثمائة وستين درجة مئوية.

مرت فترة صمت طويل، أمي استسلمت. حاستي السادسة تقول

انها اتصلت بأبي، استنجدت به، استجارت به، «استجارت» أجمل من «استنجدت »، استجارت فيها دلالة النخوة والشهامة والفروسية. « استنجدت » كلمة تفوح منها رائحة ذل، ولها لون المهانة.

الصمت ثقيل، لكن ضميري مرتاح والمروحة الكهربائية دمها خفيف. وزن الصمت يتجاوز ثلاثة أطنان أو أربعة أطنان؛ لأن دم الصمت ثقيل، لكن وزن دم المروحة الكهربائية لا يتجاوز وزن الريشة. ضغطت على زر المروحة، المروحة مصابة بشلل نصفي. إنها تمثل هذا الدور تمثيلاً، لكنها تتقنه. تدور دورتين وترسل أزيزاً طريفاً ثم تهمد دقيقة أو دقيقتين، ثم تعود لتدور حول نفسها ثلاث مرات مثل دوران الأرض حول نفسها، ثم تتوقف. هكذا، مروحة مزاجية وظلها خفيف. اني أبصر ظلها، إنه خفيف. أما ظل الصمت فثقيل ألف كيلومتر، أقصد ألف كيلو غرام.. وزن الصمت، بعد ثلاثة فصول من الصمت وصل أبي ووصل صوته معه. كان يحمل صوته معه حيثما ذهب. طرق الباب بعنف وراح يأمر وينهى ويزجر وينهر، وأنا راقد على السرير أدخن سيجارتي بهدوء وأناة، وأرقب خيط الدخان يحيك قميصاً رمادياً.

دخل صوت أبي متحولاً إلى صوت رائق، الصوت دخل لكن أبي لم يدخل. كيف يدخل والباب مغلق؟ الصوت فقط، مسموح له أن يدخل، رغم أن الباب مغلق بالمفتاح؛ لأن الصوت طرف ثالث، الصوت هو الراعي، الوسيط، المفاوض، الحكم الذي يحاول مصالحة خصمين ليس حكماً، وإنما شيخ جليل له دالة على الخصمين، يحظى بتقديرهما.

اكتشفت أنني في الحمام ولست في غرفتي. حين كنت طفلاً واقترف خطيئة، كان أبي يزجني في الحمام عقاباً. أصرخ، أشد شعري، ذعر المكان المغلق الموصد، رعب الاعتقال، يضيق نفسي، سأختنق، أصيح وتنهمر دموعي، سأختنق، لكن أبي أقفل الباب من الخارج، وأسمع صوته: حتى تتعلم درساً، حتى لا تعيدها مرة أخرى، ثم يذهب، ويتركني حبيس الحمام. والرعب جرثومة تتسلل إلى عقلي، فأرى السقف يهبط ببطء، والأرض تحتي ترتفع بأناة والجدران تتقدم على مهل لتتعانق، تتلاحم، تتحد، تنضم. هذا جدار يتقدم من ذاك ليضمه، وأشم رائحة الذعر، للخوف رائحة ولون. رائحة مرحاض ولون العتمة رائحة جرو قذر، كلب شوارع لم يستحم منذ سبع سنين، كلب هائم على وجهه بلا صاحب، لا يمتلكه أحد. شرس ومسعور ويعض وينام في المجاري. ولون العتمة مخيف، لون الليل بلا حرس ولا عيون، يفتح أبواب الجسد والنفس يكشفني، ثم يطالبني بالنوم. كيف أنام وأبوابي مفتوحة ونوافذي مشرعة، والعصابات وقطاع الطرق والأشرار واللصوص في الخارج؟ أشعر أنني في حصن مستباح، بلا قلاع ولا أسوار.

قلعة عارية، ولا أنام إلا بعد أمر لا يرد ولا يقوم من سلطان النوم، حيث تنهار مقاومة الجسد لسلطان النوم. تستسلم العينان المذعورتان المفتوحتان، وأدخل إلى كوابيس سلطنة النوم.

اليوم أنا الذي قفلت باب الحمام من الداخل. تغيرت قواعد اللعبة، هم يصيحون يزجرون يهددون يناشدون يستعطفون، وأنا أملأ حوض الماء بأناة وهدوء، ماذا ورائي؟ لا يوجد شيء ورائي

لأخسره؟ لا مواعيد ولا حفلات ولا مؤتمرات ولا وظائف. وأغطس في حوض الماء، تسترخي عضلاتي في الماء. الماء رفيق ودود ليس بارداً فيقرصني، ولا ساخناً فيحرقني. الماء بارد لكنه غير قارس، وجسمي يعتاده، مثل بركة سباحة، تسترخي عضلاتي، يساورني نعاس لذيذ، سكينة داخلية عميقة، رغم الصخب والضوضاء خارج جدران الحمام. لكن الحمام قلعتي المنيعة، حصني العصي. الأنواء والأعاصير والزلازل في العالم الخارجي، وأنا في حصني الراسخ المكين أنعم بالسكينة، لا أبالي بصخب العالم الخارجي.

هكذا أمشي أحياناً في شوارع الحي، الشوارع التي أعرفها وتعرفني منذ الطفولة. أسير بخطى واثقة، طمأنينة في داخلي، في قلعتي الجوانية، وصخب وضوضاء في الشارع حولي.. عن يميني وشمالي سيارات وزمامير وأبواق وباعة ينادون وأصوات، حوارات آلاف الحوارات. إثنان يتحاوران، ثلاثة يتناقشون، أربعة يتفاصلون، خمسة يغنون. واحد يتحدث إلى نفسه، وباصات وحفريات تهز الشوارع. زمجرة رياح، ثرثرة مطر صاخب، أشعة شمس تسقط على المدينة مثل قنبلة صوتية مدوية هادرة.

وأنا أمشي بهدوء وطمأنينة. كل هذا الصخب، كل هذه الحركة المضطربة المائجة في العالم الخارجي تبقى في الخارج، لا تقتحم قلعتي الداخلية حيث السكينة خضراء، ترتطم بأسوار حصني الجواني المنيع الساكن الذي أسكنه. كأنني غواصة تبحر في أعماق مياه متلاطمة هائجة ثائرة طالعة نازلة. لكن الغواصة من الداخل تسكنها السكينة، غواصة منيعة.

خزنة داخلية سرية يعجز اللصوص المحترفون عن فتح ثغرة فيها، خزنة من الحديد والصلب.

وأسبح في حوض الماء الذي فاضت مياهه بعدما نزلت به. أتذكر ذلك المنظر الذي رأيته في السينما أو على شاشة التلفزيون: امرأة تسترخي في حوض الحمام وحولها فقاعات صابون، كتل رغوة، وهي منتشية، سكبت كل زجاجات الشامبو في الحوض، لكنني لم أنجح في عمل رغوة مثل رغوة حمام تلك المرأة. لا بأس، بوسع خيالي أن يخترعها.

بوسع حاستي السادسة أن تحسها. الاسترخاء في الحمام نشوة وعقاب، عقاب لذيذ. أتمتع بمعاقبة رب الأسرة، الأسرة حكومة، الأسرة سلطة قائدها رب الأسرة، أبي رئيس وزراء أسرتنا، وأنا أعلنت العصيان.

تخيب أمي فتح ثغرة في قلعتي الحصينة، دموع أمي تصهر صلابة قسوتي، تحول بطشي المعدني إلى ماء ورد. تذوب أعصابي الفولاذية، دموع أمي، نقطة ضعفي الخفية الوحيدة. الثغرة السرية في قلعتي، ومع ذلك فهي لا تعرف سري ولا تقف على نقطة ضعفي هذه، لا تقف على سرّ موقع ثغرة قلعتي.

فأخرج عارياً، تركض أمي لتجففني، وأبي يدرك تماماً إنه عاجز عن ضربي، حين ضربني آخر مرة، أقصد حين مد يده عليَّ آخر مرة، التقطت رسغه، ماذا يسمونه؟ معصمه. التقطته بقبضتي الحديدية، كنت كالمجنون، ثائراً خائفاً غاضباً مرعوباً. عصرت معصمه، صرخ، فوجئت. صدمة صرختة نقلتني فوراً من الغفلة إلى

اليقظة، من عالمي الخاص إلى العالم الخارجي الجماعي، حررت يده فوراً، وقبلتها وسألته إن تألم كثيراً. نهشتني مشاعر الذنب، الذنب ذئب. مشاعر الذنب ذئاب. منذ ذلك اليوم، منذ تلك المرة الأخيرة، لم يرفع يده عليّ أبداً.

تفاوضنا، المفاوضات صعبة. اجتمعوا كلهم، كل الأطراف أبي وأمي ووالد هيام ووالدتها، قالوا إنهم سيبحثون عن تسوية.

قلت معترضاً:

- يا سلام، تبحثون عن تسوية وحل وإبرام معاهدات في غياب الطرفين المعنيين، أي أنا وهيام.

ضربت الطاولة بقبضتيَ الفولاذية احتجاجاً، وتذكرت خروتشوف حين ضرب طاولة الأمم المتحدة بحذائه احتجاجاً. خروتشوف قبضاي. أنا لم أضرب المنضدة بحذائي مثل خروتشوف، لأنني أكثر تهذيباً منه وأقل جسارة، أقل قدرة على جرح مشاعر الآخرين، أقل قسوة.

ما إن هوت قبضتيَ على المنضدة حتى انكسرت، فتحطمت تماماً، مع أنها خشبية، والد هيام احتد، احتد والد هيام وأعلن انسحابه من المحادثات، وقال وهو يغادر:

- لن يتزوجا..

ثم التفت إليّ بعينين ناريتين وقال عبارة لا أحفظها بدقة ولكنها قريبة من:

- اركب أعلى خيلك.. أو أعلى حصان عندك اركبه.

وبعدما هدأت العاصفة، طلبت من ماما أن تترجم لي العبارة التي قذفني والد هيام بها. قلت إنني لم أفهمها. قالت إنها تعني أنه لن يزوجني هيام، لكنني لم أصدقها، عينا أمي لا تعرفان الكذب، نظراتها تفضحها.

خرجت إلى إسماعيل البقال وسألته عن معنى العبارة، فأطلق ضحكة مجلجلة لأنني خلطت كلماتها، فصححني ثم قال إنها تعني أنه يتحداك. يقول لك: أنا لا أخاف منك، أنت لست نِدّي، لم أفهم (ندّي). قلت لإسماعيل أن يترجم الترجمة قال:

- إنه يعني أنك لست رجلاً حقيقياً، وأنه يتحداك.

كذّبت إسماعيل، هددته، قلت له أن يقسم بالله العظيم أن هذا هو معنى عبارة عمي (أبو هيام). قلت له إنني أعرف أنه يحب الإيقاع بين الناس، لكن حيله لا تنطلي على ذكائي، يستطيع أن يضحك على ذقون كل أهل الحي، إلا ذقني، ثم ذكرته بخدماتي له. قلت هل نسيت تلك الشلة من السكرانين الذين حاولوا أن ينهبوا زجاجة ويسكي من دكانك مجاناً؟ من الذي طردهم، وركلهم في أقفيتهم، وأنقذك من شرهم؟

صار وجه إسماعيل مثل الثلج، تساءل عن العلاقة بين تلك الحادثة وترجمة عبارة «أبو هيام». قلت إن العلاقة واضحة. أنا حميته، ومستعد دائماً للدفاع عنه إذا ضايقه أحدهم، مقابل ذلك أريد ترجمة دقيقة لما قاله أبو هيام. قال إسماعيل ونظرات عينيه لا تلفق ولا تختلق ولا تلمع:

- أقسم أنها عبارة تعني التحدي، إنه لا يخافك.

أصاب العماء ضوء عيني وعقلي، هتفت كالمجنون:

- لم يخلق الذي يجرؤ على أن يتحداني لم يخلق بعد، ولو خلق وتحداني، لتمنى أن أمه لم تلده.

خرجت من الدكان وضوئي أعمى لم أعد أرى شيئاً.

خفت، خفت من ردة فعلي فحاستي السادسة تقول إنني أتحول إلى وحش مسعور مجنون حين يجتاحني الغضب، وأخرج عن طوري. قلت لنفسي ينبغي أن أنتظر حتى يتبخر بخار نوبة حرائق الغضب التي أضرمتها كلمات (أبو هيام) في نفسي.

فرحت أركض مثل جواد بري يطارد نحو غابته، نحو بحره، بحر يريد أن ينسى أنه جواد. يريد أن يرهق نفسه حتى تهدأ أمواجه وتنحسر وهي تلهث ويتصبب منها العرق بعد أن اكتسحت اليابسة، وحطمت مدائن بكاملها، وغمرت جبالاً شاهقة، ودمرت صخوراً جبارة طاغية معتدة بنفسها وحولتها إلى ذرات غبار تافهة.

ركضت في الشوارع بسرعة طائرة نفاثة، إذا لم تخني الذاكرة كانت السماء تمطر بغزارة، وإذا خانتني الذاكرة الخؤون، فإن السماء لم تكن تمطر مطراً بغزارة، وإنما كانت تمطر حراً بغزارة، لكنني أتذكر شيئاً واحداً بيقين لا شك فيه: المياه.

بعد الركض والركض، بعد الركض الشبيه بمطاردة حياة أو موت، عدت إلى البيت مبللاً، لا أتذكر، هل كنت مبللاً بالعرق أم بالمطر. لكنني أرجح المطر: أن يبتل الإنسان بالمطر، أجمل من أن يبتل بالعرق، أرجح المطر على أسس جمالية.

ها أنا كبرت فجأة، وثبت من الطفولة إلى سن الرشد؛ لأن استخدام عبارة (على أسس جمالية) يعني أنني حين قلتها كنت في سن الرشد، لكنني تقهقرت إلى سن المراهقة بعد خمس دقائق قلت:

- سألقن رب أسرة هيام درساً لن ينساه في حياته. وهكذا بدأت أنا وعاصي (العقل المدبر) نعد خطة خطف هيام.

حين رأيتها صدفة، ولأول مرة، تجلس على كنبة في صالون خالتي أم عبد الكريم، كنت في سن الرشد، بل كنت كهلاً. وهذا سبب وقوفي أو توقفي عند ذاك المشهد مثل رجل حلت عليه لعنة فتحول إلى عمود حجري ثابت من الذهول. أول مالفت انتباهي.. غياب أم عبد الكريم: أين أم عبد الكريم؟ ولماذا لا تجلس معهما وتراقبهما، فتطمئن القلوب؟ عبد الكريم رجل وسهام امرأة.. وحدهما في غرفة، هذا يعني أن الشيطان الوسواس الخناس ثالثهما.

ولكن، لماذ لم يسدل عبدالكريم الستائر حتى لايرى عابر السبيل ما ينبغي أن لا يرى؟ فكرت في الأمر ملياً، واستنتجت أن عدم إسدال الستائر جزء من المؤامرة. ماذا تقولون أنتم الأدباء: ذر للنظرات في الرماد؟ أو ذر للعيون في الرماد؟ المهم، حاستي السادسة قالت لي: إصرارهما على أن يجلسا في صالة واحدة في وضح النهار جهاراً نهاراً، أمام عيون المارة خدعة ينبغي أن لا تنطلي على مثلك فلو كنت رجلاً عادياً بسيطاً ساذجاً، لقلت أم سهام صديقة أم عبد الكريم تزور أم عبد الكريم مع أمها وبدون أمها. سهام إذن مثل أخت عبدالكريم لماذا؟ لأنهما كانتا تلعبان معنا في الحارة ونحن

أولاد. سهام مثل أختي، هكذا أشعر أنا، وسهام بمثابة أخت عبدالكريم لأننا جميعاً أبناء حي واحد منذ الطفولة.

لكن عبدالكريم ليس معتصم، عبدالكريم ابن حرام، عبدالكريم دون جوان. يجمع الصديقات في السر مثلما أجمع أنا الطوابع في العلن.

لعب فأر بحجم شتلة شجرة في عبي. اسم شتلة الشجر الذي زرعها الفأر في عبي: شجرة الشك، ولا أقول اليقين، الشك في أنهما على علاقة تتجاوز الأخوة. حاستي السادسة تحولت إلى عدسة مكبر، فرأيت نظراتها المنطلقة نحو ظهره وهو يعزف، حركات يديه وذراعيه ورأسه، حركات مجنون، حركات رجل أصيب بنوبة انفعال أو إثارة قصوى. ماذا تسمونها أنتم الأدباء؟ آه تشنجات. كان جسده ينتفض وهو جالس في مكانه، كأن حالة هوس أصابته. حالة مس من الجنون. قلت لعلّي أرى ما أرى لأنني لا أسمع الموسيقى، فقد رأيت عازفين على التلفزيون يعزفون مثل عبد الكريم كأنهم أصيبوا لتوهم بنوبة هستيرية لكنني تعودت أن أقرن حركاتهم مع الموسيقى. لكنني لم أسمع الموسيقى التي يعزفها عبد الكريم، بسبب المسافة والبعد وزجاج واجهة الصالون. للوهلة الأولى بدا الأمر مضحكاً، مثل مذيع يلقي خطاباً حماسياً على شاشة التلفزيون، وأنت ضغطت على زر كاتم الصوت، تبصر رجلاً يخطب بحماسة مبالغ فيها ولكن بلا صوت. ترى ملامح وجهه المتشنجة المتجهمة ولا ترى صوته، مشهد مضحك، لكنني لم أضحك، تساءلت:

- لماذا لا أسمع صوت البيانو.. ولو خافتاً؟ فالواجهة الزجاجية والمسافة لا تحجب الصوت تماماً. خطر لي أنه يمثل لعب البيانو، كي يراه أهل الحارة، فيطمئنوا أنه يلعب البيانو، وسهام (وهي بمثابة أخته تصغي إلى الموسيقى) ومما ضاعف ريبتي جلوس سهام على الكنبة خلف عبد الكريم أي أنها ترى ظهر عبد الكريم لا وجهه وصدره، لماذا؟ جزء من المؤامرة؛ لإيهامنا.. لإيهامنا بماذا؟ لإيهامنا ببراءة ما.. كيف؟ لا أدري هكذا قالت لي حاستي السادسة، إن جلوس سهام خلفه عن بعد، جزء من مؤامرة التمويه، نظراتها إلى ظهره، نظرات تخترق القميص الصيفي الخفيف الشفاف، القميص الشفاف الذي بلله العرق، القميص الشفاف الذي لا يوجد تحته قميص داخلي أبيض، قميص من اللحم، على العضلات، وعبد الكريم، عضلاته مفتولة. وقد قال لي أحدهم إن رائحة عرق الرجال تثير شهوة النساء، واذكر، إذا لم تخني الذاكرة أنه قال إن النساء يفضلن الرجل ذا العضلات المفتولة لأنه يذكرهن بالقوة الحيوانية العارية.

نظراتها تلحس عرق ظهره، رأيتها بأم عين حاستي السادسة.

غاب القط العب يا فأر، لكن القط (عاصي) أحب الناس في الكون إلى نفسي. إذن لا بد من أن لا أبقى متفرجاً مكتوف الأيدي مثل قواد.

سهام

الموسيقى الكلاسيكية، موزارت بالتحديد، بساط سحري ينقل سهام إلى عالم آخر، عالم لا حروب فيه ولا عنف، ولا قهر، ولا كبت. عالم متجانس متناغم منسجم، لا تناقضات فيه.

لا تزعم أنها خبيرة في الموسيقى الكلاسيكية. حتى أنها، مؤخراً فقط، بدأت تعرف أن هذا اللحن لموزارت وذاك لشوبان. عبد الكريم أخذها إلى ذلك العالم المدهش المترفع عن تفاهات تفاصيل الحياة اليومية.

جاءت تزور أمه وهو يعزف، قالت أمه:

- دعينا نجلس في غرفة الجلوس بعيداً عن هذه الضوضاء الموسيقية غير المفهومة.

قالت سهام إن الأذن الموسيقية الشرقية عموماً، والعربية بالتحديد لا تميل لسماع الموسيقى الكلاسيكية، وإنها هي أيضاً لا

تفهم الموسيقى الكلاسيكية، لكنها لا تبغضها.

أم عبد الكريم قالت وهي تجر سهام من يدها إلى غرفة الجلوس في الجهة الأخرى من البيت إن سهام تقول إنها لا تبغض الموسيقى الغربية، من باب المجاملة، قالت:

- كلنا نكرهها ولا نفهمها.. وابني نشاز، مس شيطاني أصابه.

حوقلت ثم قالت إنها ستعد ركوة القهوة لتقرأ طالع سهام، قالت وهي تختفي في المطبخ:

- إن شاء الله.. يا ربي.. أرى أن الحكومة ستفرج عن عاصي قريباً.

وتولي سهام وجهها صوب الصالة، تفتح البابين الفاصلين بين غرفة الجلوس والصالون، تصغي إلى عزف عبد الكريم، وتراه من موقعها. ترى انغماس جسده كله في العزف، كأنه يخوض معارك ملحمية مع قوى الطبيعة الخارقة. حركات ذراعيه، منكبيه، جذعه، رأسه.

بدا لها أن عبد الكريم يبصر الموسيقى ويلمسها، يتحسسها بأصابعه. لا يتحسس مفاتيح البيانو، بل جسد الموسيقى نفسه، كأن الموسيقى بحر يصارع أمواجه، وفي أعماقه إيمان خفي بأنه سينتصر عليها.

مشت علي رؤوس أصابعها ووقفت وراءه دون أن يحس بها، كان مأخوذاً تماماً، لايوجد منه في هذا العالم سوى جسد، حتى جسده المتراقص مع الموسيقى ليس هنا، لايوجد هنا سوى ظل

الرجل، الرجل يحلق في عالم آخر، وهو جالس هنا.

تذكرت بعض ما قرأته عن التصوف والكشف والحلول والإشراق والاتحاد، والغياب عن الدنيا، والغناء.

رأت عبد الكريم (ابن عربي) من طراز آخر. لم تكن متبحرة في التصوف، لكنها تقرأ عنه، وتجلس طويلاً عند نافذتها وتقرأ عبارات للنفري أو فقرات من (الإشارات الإلهية) فيمتلكها شعور غامض غريب، مزيج من الرقة والصلابة، رقة شفيفة تجعل قلبها ليناً، ودمعتها حارة على وجهها، وصلابة الصبر والنفس الطويل بانتظار الإفراج عن عاصي.

صحيح أنها تعيش مع أمها، لكن الوحشة قاتلة، خصوصاً في الليل، حين تأوي وحيدة إلى فراشها البارد، وينهشها الأرق، بينما يلقي القمر نوره الناعم الهادىء على نحرها وصدرها، فتشتاق لعبد الكريم شوقاً ملحاً، وتحن إليه حنين عجوز إلى حبها الناضج الأول.

كان الاكتئاب يعتصرها، عندما تجاوز الاعتقال السنة الثالثة. لا حكم محددا فلا محكمة أصلاً. إذن قد يقضي العمر كله في المعتقل. بدأ صبرها ينفد، وقناتها تلين ومقاومتها لليأس الجلاب للكآبة تذوي.

صارت تفضل الاعتكاف في البيت، مما دفع أمها إلى جرها بقوة الإلحاح لزيارة صديقاتها من عجائز الحي. وفي كل زيارة كانت تخرج شاعرة بأنها تحتضر، تشم رائحة الموت.

لكنها أحبت أم عبدالكريم، أم عبدالكريم تفتح بالفنجان، وأم عبدالكريم ذاقت مرارة تجربة زوجة السجين؛ إذ اعتقل زوجها أيام زمان.

وحين كانت أم عبد الكريم تأتي لزيارتهما، فلا تجد أم سهام في البيت، تخلو إلى سهام وتحكي لها بصراحة مباشرة عن حرارة شوقها لزوجها أيام الاعتقال. كانت تتمتع بقدرة غريبة على تسمية الأشياء بأسمائها، حتى إن سهام شعرت بالخجل والارتباك عدة مرات.

لكن أم عبد الكريم لا تخوض في موضوع حالة زوجة المعتقل إلا حين تنفرد سهام وحيدة. ووجدت سهام في كلام أم عبد الكريم عزاءً كبيراً، فقد كانت تعبّر عما تشعر به هي، ولكن لا تستطيع التعبير عنه بهذه الحرية والجرأة.

هيـــام

ثمة سور يفصل بين بيتيهما يتحاوران من فوق الســور. رأسـه فوق السور، بوسع هيام أن ترى رأســه وعنقـه ونصـف صـدره مـن وراء السور. بوسعه هو -معتصم- أن يرى أكثر لأنه أطول.

تقول له أنت طويل. أنا قلت لـه إنـه طويـل. قلـت لهـا أنـت جميلـة مثـل القمـر. قلـت إن القمـر فقـد جماله بعـد أن نـزل عليـه الإنسان. قالت إنه ليس سوى دائرة مـن فوهـات الـبراكين الخـامدة والصحارى. سألها عن شيء جميل آخر يشبهها بـه، قلـت لـه إنـني أحب البحر، قل لي أنت جميلة كالبحر، لأن البحـر يشـبهني، البحـر مزاجي ومتغير ويشبهها، يثور حيناً ويسكن حيناً، إنه يشبهها.

قال لها إنها جميلة كالبحر، فضحكت، قالت:

- ولكن ليس كـالبحر الميـت، لأن البحـر الميـت ليـس بحـراً.

وسألته إن كان يعرف أن البحر الميت بحيرة وليـس بحـراً، مـن قبـل،

قالت إنها لم تعرف أنه بحيرة وليس بحراً إلا قبل أيام حين كان والدها يتحدث إلى أمها وقال إن بعض الناس أو الجهات يفكر في تحويل البحر الميت من بحيرة إلى بحر عبر ربطه بقناة مع بحر آخر، قالت إنها لا تتذكر ما هو البحر الآخر، لعله البحر الأبيض أو البحر الأحمر. قالت:

- نسيت.

قال إنه يعرف أن البحر الميت أسفل نقطة في العالم، أنا لم أكن أعرف أن البحر الميت سافل. سألت معتصم:

- لماذا؟

قال:

- لماذا لماذا؟!

سألته:

- لماذا البحر الميت سافل؟

امتلأ فمه بالضحك، وقال إنه «واطي». إذن البحر الميت سافل وواطي أيضاً وأزعر. قال لا إنه يقع في قاع الأرض، وقال إن هذا ما عناه حين قال إنه أسفل بقعة على الأرض.

قلت إن رائحته تشبه رائحة البحر الأسود الذي رأيته على الخارطة. قال سنهرب الليلة. وهربنا، وكان عاصي معنا، وكانت هذه أول مرة في حياتي.. أقصد أول هروب في حياتي. هربت كثيراً، خصوصاً مع معتصم، لكنني لم أهرب يوماً كاملاً بليله الطويل ونهاره العريض إلا هذه المرة.

ولم أدخل قصراً في حياتي إلاهذه المرة. إذن هذا الهروب كان

أول مرتين. أقصد أول مرة أنام خارج بيتي بدون ماما وبابا، وأول مرة أنام في قصر حقيقي، لكن صاحبه رجل عادي، صحيح أنه مليونير لكنه ليس ملكاً ولا أميراً.

ثم قبضوا علينا، واعتقلونا. وأنا لم أفهم علاقة هروبنا وزواجنا رغم معارضة أهلنا، وقضاء ليلة الدخلة في ذلك القصر، وبين مقتل سهام سألوني، قلت لهم إن عاصي ظنها عصفوراً فاصطادها وإنني لم أكن معهم. كانوا ثلاثة فقط: سهام (رحمها الله) ومعتصم وعاصي، هكذا سمعت، هذا ما قالوه، سمعت و لم أر.

◆

قلت لمعتصم إنني أقرأ رواية بالإنجليزية حتى أقوي إنجليزيتي، لكنها معقدة وأنا لا أفهمها. الرواية تحكي عن رجل وامرأة، المرأة امرأتان لكن الناس يرونها واحدة؛ لأن المرأة الأخرى تختفي في بطنها، في رحمها، أقصد الجنين ستولد بعد ثمانية أشهر وسيكون اسمها "جانين".

أما الرجل (زوجها على ما أعتقد) فهو في رحلة بحث عن أمه أو حفيده، لست على يقين من الأمر. لكنه يمشي ويمشي ويبدو أنه لا يمشي. قلت له إن البطلة، بطلة الرواية، حامل مثلي. قال إنني لست حاملاً. قلت أنت مجنون، لعلك نسيت أننا نمنا في سرير واحد طوال الليل حين هربنا وأقمنا يوماً كاملاً في القصر المهجور.

ولكن لماذا سجنوا عاصي؟ لأنه قتلها، ولكنه قتلها بالغلط، لم يقصد قتلها؟ ظنها طيراً.

قال لي ورائحة كلماته تفوح برائحة البحر الأسود إنه هو الذي قتلها.

قال معتصم لهيام وقد نكس رأسه إنه هو الذي قتل سهام في رحلة الصيد تلك، وليس عاصي، وإنه سيعترف، وإن عاصي كذب حين قال إنه هو الذي أطلق رصاصة طائشة فقتلت زوجته. قال إنه سيذهب إلى مخفر الشرطة ويعترف، مرة أخرى، لعلهم يصدقونه هذه المرة!

◆

الرأي العام تحول كله، إلى مجتمع من القضاة المختلفين.

منهم من قال إن عاصي أعد خطة محكمةً لقتل سهام، بعد أن سمع أنها خانته مع عبد الكريم عندما كان في المعتقل، فاقترح رحلة الصيد، ودعا معتصم ليرافقهما. ولأن معتصم (غريب) وينسى، ويصدق كل ما يقوله عاصي وكأنه كلام مُنَزّل.. استغله عاصي أبشع استغلال؛ إذ ذهب ثلاثتهم للصيد، ووقف عاصي ومعتصم في موقع واحد، وقال له عاصي:

- أطلق النار.. بسرعة.. هذا عصفور.

معتصم أطلق النار على عصفور لا يراه، في ذات اللحظة التي أطلق عاصي النار على سهام، تماماً بين عينيها، ثم صرخ:

- ماذا فعلت يا معتصم.. يا حمار، قتلت سهام.

وهكذا استغل عاصي (غرابة) معتصم، وألبسه جريمة لم يرتكبها، بل أقنعه أنه هو الذي ارتكبها فعلاً.

أما الرواية الثانية عن مقتل سهام فهي تتهم معتصم بأنه قتلها عن قصد انتقاماً لصاحبه عاصي وظناً منه أنها كانت تخون (عاصي) أقرب إنسان إلى قلبه.

أما الرواية الثالثة فتزعم أن سهام قتلت برصاصة طائشة فعلاً.. وأن موتها غير مدبر، ولكن من الذي أطلق النار؟

هيـــام

الرواية المعقدة الصعبة التي أقرأها تتحـدث عـن رجـل يبحـث عن جده أو حفيده، وامرأة غامضة حامل. بطل الرواية والد الطفل، الطفل جنين في الشهر الثاني، والأم الحامل معتوهـة، وأنـا لا أعـرف إن كانت وُلدت معاقة عقلياً، أم أنهـا أصيبـت بمـرض أو صدمـة في طفولتها أو صباها أدى إلى انهيار عقلها وضمور بالها.

والرجل ليس أفضل حالاً، إنه مريض، ولكنني لا أفهـم طبيعـة مرضه. الروائي نفسه حمار، ولا يقول لنا نحن القراء، ما هـي طبيعـة مرض الرجل. ما عرفته مـن القـراءة أن ذاكـرة الرجـل تـذوي علـى حساب تضخم وتفاقم مخيلته. ولعـل هـذا المـرض ولـد معـه، ولعلـه أصابـه أثنـاء انفجـار مسـتودع الأسـلحة الجرثوميـة والكيميائيــة في العراق.

ومن وراء السـور قـال معتصم إنه اشـترى الـرواية التي كتبهـا

شاب عربي مغمور، وإنه بدأ بمطالعتها، وإنه فهم أن الرجل متخلف عقلياً وإن المرأة متخلفة عقلياً، لكن مرضهما ليس واحداً، وإنهما يعشقان بعضهما بعضاً، وإن ربّ أسرة الرجل المريض وربّ أسرة المرأة المريضة رفضا زواجهما.

قلت له إنه لم يفهم الكتاب أبداً، وتأكدت من أنه نفس الكتاب. هو يقرأ الطبعة الإنجليزية، وأنا الترجمة العربية. مؤلف الكتاب واحد، لكن العنوانين العربي والإنجليزي متشابهان لا متطابقان. قال أبي حين سألته إن المترجمين يتصرفون بالترجمة أحياناً ولا يترجمون ترجمة حرفية ولم أفهم ماذا يعني؟ وزاد الاختلاط اختلاطاً، والالتباس التباساً، بعد تفسير أبي وشرحه!

◆

إنها رواية حول إنسان -ذئب- وحش، يقع في غرام امرأة نصفها ملاك ونصفها طفل بريء. قال معتصم بعدما قرأها مرة ثانية في زنزانته، وقال إن هيام تقرأ رواية أخرى للمؤلف نفسه، وسبب الالتباس التصرف في ترجمة العنوان. فالترجمة العربية للرواية الإنجليزية، أو الأمريكية هي: (الرجل ذو الحاسة السادسة)، والعنوان بالإنجليزية..:

(الغرباء الثلاثة أو عاشقان وحواس ست).

◆

فقرة من رواية (الرجل ذو الحاسة السادسة أو ثلاثة غرباء):

قال لها وهو يتهالك على قدميها ويلثمهما:

- إحميني من نفسي، إحميني مني.. أرجوك، إنني قنبلة متفجرة موقوتة.

ركلته بحذائها في ذقنه، وقالت:

- ما كنت أتصور أن يمسخ حبيبي الفارس المشوق العامر بالكبرياء، إلى جرذ بلا كرامة ولا كبرياء، جرذ المجاري الذي يناشد حبيبته السابقة أن تحميه من نفسه، من جنونه.

هل تذكر كيف كنت قبل مرضك؟ يا إلهي، كنت فارس الشهامة والنخوة قبل المرض، ثم مسخك المرض إلى أرنب موبوء، بل حشرة تافهة بلا عقل.

وتركته منكمشاً جاثياً في الشارع الموحل، ومشت مبتعدة عنه بخطوات أرستقراطية مزهوة.

ثلاثة غرباء

قال البطل للبطلة إنه لا يرغب في الزواج منها، بعد أن تعرض للغاز الغامض في الحرب الكونية، بل إنه لم يعد يرغب في الحياة. قال إن جسده نفد بجلده حياً من الحرب، لكنه هو (وهو غير جسده، لأن جسده مجرد جزء منه) مات في الحرب، جراء استنشاق المادة الغامضة، المادة الغامضة جففت أنهار رغبته في الحياة، وفجرت عيون ينابيع الرغبة في الموت.

هنا، يتحول النص إلى سرد غير مفهوم أو ملتبس: العاشق يقول لعشيقته، بعد الحرب، إنه لا يرغب فيها، ليس لأنها تغيرت، بل لأنه تغير. لقد فقد رغبته، بل رغائبه، ليس فيها فقط، وإنما في الحياة برمتها. إنه لا يرغب في الجنس ولا في الخمر ولا في القراءة ولا في سماع الموسيقى، ولا في الحياة العامة، ولا في إقامة علاقات حميمة مع الناس، أو الأزمنة، أو الأمكنة.

فقد كل رغباته أو رغائبه، فقد رغبتـه في الطعـام اللذيـذ، وفي الترحـال، وفي التدخـين، وفي النـوم، وفي الصحـو، وفي الفصـول الأربعة: إنه يتقيأ ثلاث مرات في اليوم.

ملاحظة:

شخصيات رواية (الغرباء الثلاثـة) بـلا أسمـاء ولا ملامـح أمـا شخصيات الترجمة العربية، وقد تصرف المترجم على الأغلب، بحريـة مبالغ فيها فهي "عين" "ميم" "هاء".

هامش:

أيام زمان كانوا يـترجمون الكتـب أو يكتبونهـا بعنوانـين مثـل غادة الكميليا أو (كذا) نسيت العنوان البديل. ولنفترض إذن: (غادة الكميليا أو الحب العذري) و (آلام غوته أو الحزين المرهف) الخ. .

الحادث

القمح مديد القامة، وثمة شجر زعرور ولزاب ولوز وزيتون و تين وسرو، الأشجار مبعثرة. تماثيل نحتها فلاحون من جيل مضى، والقمح جيل جديد وذهبي.

◆

التحقيق

الضابط يسأل عاصي:

- متى وصلتم إلى المزرعة؟

لكن عاصي لا ينبس، وإنما يشبك ساقاً على ساق، ويسترخي على مقعده الخشبي، في غرفة التحقيق، كأنه على وشك أن يقيل قيلولة ما بعد الظهيرة.

◆

الحادث

عاصي يقف بجسده الممشوق: بنطال جينز وسترة جلدية وشارب أشعث. معتصم في دشداشة بنية، وبلا ملابس داخلية. قال فيما بعد إن هذا (الوضع) يشعره بالحرية وغياب القيود والرقابة الاجتماعية. ورحلة صيد في مزرعة الصديق الحبيب عاصي، هي المكان الأنسب، لترك النفس على سجيتها، لذلك كان يرتدي دشداشة بنية كثيفة حتى لا ترى سهام من خلالها (بضاعته)، وكان بلا ملابس داخلية. وعاصي يمشي ويتنحنح ثم يشيح ويرفع كفه إلى خده ويبصق، كأنه يعاني من زكام أو حساسية.

◆

فقرة من الرواية التي تطالعها هيام :

وقف (عين) تحت عين الشمس، سألته (هاء) إن كان يرغب بجرعة ماء. أشاح بوجهه وأطلق من فمه بصقة هائلة على الأرض، ثم رفع اصبعاً واحداً ومسح العرق عن جبينه، ولم ينبس بحرف، ناداه (ميم) قال:

- ألا تريد أن نرتاح تحت شجرة التين؟ إنني متعب. ما رأيك في أنْ نحتسي خمراً؟ أحضرت معي زجاجتين من العرق.

سألت عين إن كان ميم أحضر ثلجاً، فقال إنه نسي. قالت

والشمس تنسكب في عينيها مباشرة، فتجللهما بكفها:

- إذن كيف تشربان العرق.. بلا ثلج؟ غير معقول؟

◆

في الرواية الإنجليزية أو الأمريكية التي يقرأها معتصم فقرة معقدة من حيث المفردات، الكلمات صعبة، ولغته الإنجليزية لغة طالب في الأول الإعدادي (يسمونه الصف السابع هذه الأيام) وفي مدرسة خاصة تدرس اللغة الإنجليزية من الصف الأول الابتدائي، هذا ما فهمه معتصم من الفقرة:

بدا الرجل (الغريب) الذي ظهر لتوه في البلدة، وكأن الأرض انشقت فلفظته، بلا جذور ولا انتماء. بدا وكأنه لا ينتمي إلى قرية أو مدينة أو شارع أو حي أو ضاحية أو جهة أو قبيلة أو طائفة، كأنه لا ينتمي إلى هذا الكوكب كله.

ملامح وجهه، هامته، مشيته، وقفته، توحي بأنه رحالة يحمل ذكريات، ولا يحمل أي شيء آخر، لا حقيبة ولا بضاعة، فقط ذكريات يحملها في رأسه، وربما خواطر أيضاً.

قال شاهد في المحكمة : ما أن وقعت عينه على وجهه، حتى رأى القسوة العمياء والقهر المكبوت وراء ذلك القناع: أي وراء الوجه، وأدرك بحاسته السادسة أن هذا الرجل قنبلة موقوتة تمشي على قدمين ثابتتين راسختين، وخطى واثقة معتدة بصاحبها.

معتصم

كتاب الغرباء الثلاثة الأمريكي أو الإنجليزي الأصل، (قرصنة مترجم عربي. هذه حقيقة واضحة، لكن مالا أفهمه، هو.. لماذا يشير العنوان إلى غرباء ثلاثة مع أنه يحكي عن غريبين فقط: امرأة ورجل عاشق وعاشقة. فمن أين جاء الثالث غير الحاضر في الرواية؟

الشخصيات الرئيسية في الرواية غريبة، وغريبة هنا قد تعني غريبة الأطوار، وقد تعني الجنون الكامل.

الرواية معقدة ومركبة إلى درجة الاستعصاء على الفهم أحياناً، لعنة الله على الروائيين الحداثيين الذين يتكلفون الصعوبة من أجل أن يقال عنهم إنهم حداثيون. يتكلفون الصعوبة من أجل الصعوبة ذاتها.

الرواية تتحدث عن رجل قذف بنفسه من الطابق الثالث كي يضع حداً لحياته، لكنه ينجح في قتل مراكز معيّنة في عقله، ولاينجح في قتل

نفسه. أي أنه يصاب بارتجاج في الدماغ، ولا يموت.

سألني المحقق حين أخذني ومعه رجال شرطة قال:

- أين كنت تقف حين أطلقت النار على العصفور؟

كنا في حقل قمح، وثمة أشجار من التين والزيتون والسرو. وقلت للمحقق إن ذاكرتي تذوي، لا أملك إلا بقايا ذاكرة، حطام ذاكرة.

سألني بحزم:

- أين كنت تقف، هنا أم هناك؟

وأشار بإصبعه إلى مكانين متجاورين. قلت إنني لا أتذكر أنني جئت إلى هذا المكان في حياتي، مع أنه أليف، أقصد مألوف، مما يعني أنني، ربما، أقول، ربما، رأيت في أحلام اليقظة، أو في يقظة الأحلام: حقل القمح ذهباً، والريح قطاراً، وسكة الحديد تشق الحقل.

◆

مذكرات معتصم

الرواية الغامضة المعقدة أوحت لي بفكرة كتابة سيرتي بالأحرى خواطري. إنها أفضل طريقة لقتل الوقت، اكتشفت الكتابة تقتل الوقت، على عكس القراءة، وكنت بحاجة ماسة لقتل الوقت، وإلا قتلني الفراغ.

إنني في زنزانة، وعاصي في زنزانة، والمحقق يريد أن يعرف من الذي قتل سهام؟

حادثة مقتل سهام ثانوية هامشية إلى درجة عدم التفكير الكتابة عنها. ماذا يعني مقتل سهام إزاء مقتل مئات الآلاف الملايين في هيروشيما؟

أريد أن أدون القضايا الجديرة بالتدوين؛ ليقرأها الجيل الذ لم يولد بعد، حفيدي الذي لم يولد بعد، فيتعرف على معالم عصر وملامح زماننا.

في شبابنا كانت بيروت مصرفاً للحرمان والكبت، كنا نهرب إليها كي نقضي ليالي حمراء في ملاهي الزيتونة.

لكنها تحولت إلى ساحة حرب، وحاربنا، ولم ندر لماذا حاربنا ونحن لسنا أبناء بيروت! أنا مثلاً كنت ابن عمان.

كل هذه القضايا صغيرة، القضايا الكبرى في هذا العصر (عصر ما بعد حرب حزيران وحرب لبنان وحرب الخليج) تتجلى في الهواء والبحر. هل نأكل الهواء، كما قال ضابط ما في بلد ما، أم نشرب البحر؟

قال:

-.. وإذا لم يعجبكم الأمر، بوسعكم أن تأكلوا الهواء وتشربوا البحر. لكنني أدخن بشراهة، إنني أتنفس الهواء بصعوبة، فكيف آكله؟

ثم هناك قضية الناس الذين يأكلون أظافرهم، وأنا منهم.

هذه قضية تستحق أن أكتب عنها في مذكراتي: لماذا يأكل بعض الناس أظافرهم، ولماذا لا يأكل بعض الناس أظافرهم؟ هل هي الجينات؟ عوامل وراثية؟ أم تجليات قلق كما يزعم علماء النفس؟

الخميس:

في يوم من الأيام زرت باريس، ورأيت في منطقة سان ميشيل سهام، وقلت لها: غير معقول، فقالت إن العالم أصبح قرية، وإنه صغير. ودعوتها إلى حانة وشربنا، وأفرطنا، ووقفنا على الرصيف في الهواء البارد، غير بعيد عن (نوتردام) واقترحت أن

نواصل السهرة في غرفة فندقي، فقلت لها إن أبي ينزل معي في الغرفة نفسها، وهي قالت إن أختها أو ابنة عمها أو جارتها تنزل معها في الغرفة نفسها. استسلمت، رفعت ذراعي، وقلت والفرح يهدىء من روعي:

- إذن نلتقي غداً.

قالت: لا، نذهب إلى فندق ثالث، لا فندقك ولا فندقي. أم أنك تعتقد أن باريس ذات فندقين لا ثالث لهما؟

وضحكت من الأعماق، واجتاح الرعب أعماقي.

◆

المشكلة.. المشكلة، أنني لا أرى حداً بين ما يحدث في يقظة الأحلام، وما يحدث في أحلام اليقظة.

كلما اجتاحتني نوبة المحت ذاكرتي، فإذا الوجوه والمدن والشوارع والأجساد، بلا أسماء ولا ملامح.

◆

في دفتر اليوميات تصبح أشياء نعتقد أنها ثانوية وتافهة جسيمة الأهمية والخطر، بينما تتحول قضايا كنا نعتقد أنها قضايا حياة أو موت إلى مجرد خبر عابر.

مثلاً، أنا مصاب اليوم بالإسهال الشديد، هل تعرف ماذا يعني هذا (أيها الأديب المهتم بالقضايا النبيلة) إنه يعني أنني أضطر لزيارة الحمام كل ربع ساعة بسرعة خارقة.

جاء أصدقاء، ضيفتهم القهوة، وأنا أركض بين الحمام وغرفة الضيوف، ثم اقترحوا أن نذهب جميعاً لزيارة الدكتور (ج.ش) ويالحماقتي، نسيت أن معدتي ماشية (تذكر أن ذاكرتي تذوي) وانطلقنا لزيارة الرجل، وراح الأصدقاء يسألونه عن الماضي، وراح يخترع ويستشهد بأقوال ومواقف موتى وأنا رحت أركض بين حمام بيته وغرفة الضيوف.

وحين كان يتحدث عن الواقعية السياسية ومثالية الماضي، عجزت عن السيطرة على أحشائي، (وعمَلتها) في سروالي، فبنطالي، ثم الكنبة، جمدت في مكاني لا أتزحزح، لكن الرائحة بدأت تفوح وتملأ فضاء الصالة الشاغر إلا من الضوء. في الصالة أصوات تتناقش في القضايا القومية، وأضواء ثريا فخمة، ورائحة فضلاتي، وأعجب ما أثار عجبي، تجاهل القوم لرائحة مافعلته. وبعد نصف ساعة مما عملته، وبعد أن بلغت الرائحة بيوت الجيران، قال الدكتور متكلفاً البراءة:

- كأنني أشم رائحة غريبة.. لعلني أتوهم.

تشجع أحدهم وأكد ما قاله الدكتور، الدكتور سرعان ما اتهم الكلب (ماكس) بالجريمة. كلهم وقفوا مع الدكتور يشمشمون ويقتفون رائحة ماكس، وحين اختفوا جميعاً، إذ كنت الوحيد الذي بقي في مكانه زاهداً في البحث عن مصدر الرائحة - لأنني الوحيد الذي يعرفها - أطلقت ساقيّ للريح، وسرقت وسادة صغيرة من الكنبة، لأغطي قفاي.

الحادث

قيل عن عاصي كلام كثير. أصحابه ومعارفه تحولوا بين ليلة وضحاها إلى مراجع ومصادر ذات شأن، ولعب كل منهم دور المحلل النفسي.

قالوا إن عاصي الليلكي، رجل ممشوق القوام، محشو بعزة النفس، مغال في إحساسه بكرامته، ومع ذلك فهو رقيق الحاشية طيب القلب.. لكنه تغير تغيراً جذرياً بعد أن وصلت رائحة العلاقة بين سهام وعبدالكريم إلى المعتقل. اعتزل رفاقه، وانتبذ ركناً قصياً، مدد ساقيه على الأرض وأسند واستوى ظهره مستنداً على الجدار، وأضرب عن الطعام إضراباً كاملاً، وأضرب عن الكلام إلى حد بعيد.

حين سأله رفاقه إن كان يشكو من مرض ما (متجاهلين الاشاعة غير المؤكدة، بل المهلهلة) قال باقتضاب:

- مالي نفس للأكل.

وقال رفيق آخر إنه قال:

- سُدت شهيتي.

وقال رفيق ثالث مُؤَوِّلاً مفسراً، إنه كان يقصد أنه فقد شهيته للحياة، وفقد رغبته في الدنيا، ولم يقصد الطعام فقط. لكننا لم ندرك ذلك إلا بعد حين.

قال أحد رفاقه:

- منذ أن وصلته رسالة حرص على تمزيقها بدأ يميل إلى العزلة.

وصلته رسالة، قرأها بصمت، ثم انتحى جانباً. سألته إن كانت الرسالة من ليلى أو من صديق، فلم يسمعني. قرأ الرسالة عدة مرات، طوال النهار وهو يقرأ الرسالة، ثم مزقها إلى مزق لا تتيح للمرء أن يقرأ حرفين مجتمعين على وريقة واحدة، ثم قام إلى المرحاض، وعاد بعد دقيقة، فأدركت أنه تخلص منها في الحمام. ثم اعتزلنا، انتبذ ركناً قصياً، جر فراشه إلى الركن القصي دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم اعتزلنا. ظننا أن قريباً عزيزاً قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، أو أن عزيزاً قد تعرض إلى مكروه، فقررنا قراراً تلقائياً أن لا نتركه يعاني وحيداً، سألناه، تجاهلنا، لم يلتفت إلينا، كان يشبك يديه خلف رأسه، ويستند إلى الجدار بظهره ومدد ساقيه على الأرض. حين تحلقنا حوله ظل باسطاً ساقيه رغم أن بعضنا اضطر إلى الجلوس عند قدميه جراء ازدحامنا حوله. كنا نعرفه مؤدباً مهذباً، لا يمد قفا حذائه في وجه صديق أو غريب، لكنه لم يطو

ساقيه، وظلت فردتا حذائه في وجه بعضنا، أنا كنت واحداً منهم. كنت أنقل نظراتي بين قفا نعليه وعينيه، ففهم أنني غير مرتاح لوجود قفا نعليه أمام وجهي، رمقني بنظرة لو نطقت لقالت:

- لم أدعك إلى هنا، اذهب إلى ركنك، واغرب عن وجهي.

لكنه لم يقل، التزم الصمت، كأننا لسنا جماعته، كأننا الطرف الآخر، تعامل معنا تعامله مع المحققين، كان كتوماً صامتاً، وجهه بلا ملامح، كأنه تخلص من ملامحه خلسة لا تشي بأحاسيسه ولا تنم عن مشاعره. حين ألح الأستاذ عليه، وكان يحترم الأستاذ إلى حد أنه سماه « أبي الروحي » قال باقتضاب وصوت قاتم إنه يشعر بالإرهاق والإعياء وتردد قليلاً ثم التفت نحو الأستاذ كأنه يخصه هو من دوننا نحن بهذه الكلمة قال:

- ومكتئب.. أرجو أن تتركوني في حالي، سحابة صيف وتمر.

وكنا قد شاهدنا خلال سنوات الاعتقال حالات كثيرة مؤقتة مثل حالته، وتعلمنا أن أفضل الطرق لتخفيف معاناة رفيق، أن نتركه مع أقرب صديق إلى نفسه: يبوح، ويفضفض عن نفسه ولعله يسكب دمعة خفية لا يراها سوى صديقه الأقرب إلى قلبه، ويعرف صاحب الدمعة أن رفيقه المقرب هذا سيتصرف وكأنه لم ير، ولم يسمع، سيحرص على الكتمان حرص المعتقل المكتئب نفسه.

لكن عاصي رد أقرب أصحابه إليه بفظاظة واقتضاب، وبدأنا نشعر أن الأمر ليس سحابة صيف، بدأنا نشعر أن انقلاباً جذرياً عنيفاً يحدث في أعماق عاصي.

بدا كأنه حردان منا، حردان علينا، كأننا سبب كآبته الحادة الثقيلة. كان حريصاً كل الحرص على عزلته، وأضرب عن الكلام، وزهد في الطعام، واستغنى عن الحركة، فظل طول الليل وعرض النهار، راقداً بساقيه ومؤخرته على الأرض، وقد استوى ظهره فأسنده إلى الجدار، فلا يتزحزح ولا يميل إلا عندما يضطر للسعي إلى الحمام، ثم يعود إلى تلك الجلسة مصمتاً مكتوماً مغمض العينين، يفكر، يتأمل، يغمض عينيه حتى لا تفضحه نظراته. أحسسنا بعد أيام من الإضراب عن الطعام والكلام ومقاطعتنا لسبب نجهله، أنه سيقدم على فعل غير متوقع، لكننا لم نكن نتخيل أبداً أنه سيتذكر ويعترف، هذا الاحتمال غير وارد، لم يحلم به احدنا مجرد حلم.

قال أبي وهو يواسيني، بعد أن شتمتني بنت في الحارة وقالت إنني مجنونة، إنني لست مجنونة. قال إنني مريضة. وإن كثيرين في العالم مثلي. قال:

- لست وحدك تعانين من هذا المرض، ملايين الناس يصابون به، وملايين غيرهم يصابون بأمراض أقسى منه فاحمدي الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

وبعد سنوات صرت أرى صاحب الصوت، لم أعد أسمع صوته فقط، صار يظهر لي وحدي، لا يبصره غيري، كان كتلة من الضياء والجمال تحيط به هالة من النور، قال إنه يحبني وسوف يأتي يوم يظهر فيه للناس جميعاً فيخلصهم من الأمراض وسيعلن على الملأ أنني زوجته.

قلت إنني لا أقبل بزواج سري، فغضب وانقلب على عقبيه

واختفى.

رفض عاصي الليلكي توكيل محام للدفاع عنه، قال إنه مذنب، وانه يعترف بقتلها، ولا يريد أن يدافع أحد في هذا الكون عنه.

لكن القاضي قرر تعيين محام تختاره المحكمة.

التقى المحامي بعاصي، كان وجه عاصي قاصة مغلقة، خزانة غليظة، قناعاً متقنا كثيفاً.

جلس على طرف سرير الزنزانة بهدوء لافت للنظر، فتح المحامي حقيبته وبعثر أوراقاً ثم رفع وجهه نحو عاصي العالي الهامة وقال بصوت يشي باضطراب مشكوك في أمره:

- لدينا شاهد، الشاهد يقول إن معتصم هو الذي قتل سهام، وليس أنت. الشاهد فلاح كان يعبر عن بعد، أقسم أنه رأى معتصم يركض وراء سهام ثم يقف ويسدد نحوها فوهة البندقية، وأنت واقف في مكانك جامد راسخ ثابت وفوهة بندقيتك نحو الأرض.

نظرات عاصي الحادة الثاقبة انطلقت نحو عيني المحامي، فتشت عينيه المتواريتين وراء نظارة نظر، نظرة عاصي بحثت بفظاظة عن معلومات خفية في عيني المحامي، نظراته فتشت ملامح وجه المحامي، فتحتها، تحسستها، بعثرتها كأنها رجال جمارك قساة في دولة متخلفة يفتشون مشبوهاً.

أحس المحامي بنظرات عاصي تنبش وجهه وتحفر في عينيه، إضطرب، أشاح بعينيه هارباً من نظرات عاصي القارصة الحادة قال:

- ينبغي أن أعلمك أن هذا الشاهد أصم.

تنفس عاصي الصعداء، رقد على سريره وشبك ساقاً فوق ساق، وكان نعلاه يواجهان وجه المحامي، قال بصوت أسود مقتضب:

- لماذا لم تقل لي منذ البداية إن الشاهد أصم؟

أدرك المحامي الشاب المضطرب أن عاصي يرتاب فيه. نظراته الباردة اللاسعة تقول للمحامي بلغتها الصامتة العدوانية:

- لماذا أجلت المعلومة المتعلقة بصمم الشاهد.. هل كنت تتوقع انهياري، واعترافي بأنني بريء، وأن القاتل الحقيقي هو معتصم فعلاً .؟ هل خطر لحشرة مثلك أن تلعب علي لعبة؟ أن تضحك على ذقني؟ أنا الذي دوخ أكثر المحققين احترافاً أيام الاعتقال الأولى، الاعتقال الأول.. السياسي.

ينبغي يا ولد أن تعرف مَنْ أنا وأن مثلي لا تلعب عليه الألاعيب، وأنني رجل محشو بالدهاء الفطري وبوسعي أن أكون خطراً.

لم يتزحزح عاصي، ولم تتبدل ملامحه حين «اعترف» المحامي أن الشاهد أصم. أخرج عاصي علبة سجائر من جيب قميصه، يده ثابتة واثقة لم يعرض على المحامي سيجارة، أشعل السيجارة، عبَّ نفساً طويلاً، ثم دفع الدخان من فمه بقوة في وجه المحامي.

توقع المحامي الشاب أن يسأله عاصي عن هذا الشاهد: من هو؟ أين كان يقف؟ لماذا لم تقل لي من البداية إنه أصم؟ ماهي إفادته بالتحديد؟ ماذا قال؟ ألم يقل سوى أنه رأى معتصم يركض وراء سهام، سهام تهرب، ثم يتوقف معتصم ويطلق النار عليها،

بينما كنت أنا واقفاً مشدوهاً أراقب دون أي رد فعل.

لكن عاصي لم يسأل، وإنما قال بصوت بارد قارص ساخر:

- هل تعشق الدفاع عن القضايا الساخرة يا أستاذ؟

لكن عاصي لم ينطق، لا لسانه نطق، ولا ملامحه نطقت، عيناه فقط كانتا تقولان: لماذا إضاعة الوقت، وإهدار الزمن بلا جدوى؟

العقاب يبحث عادة عن ضحية أو مجرم، هذه المرة الضحية تبحث عن عقابها.

نظرات فاترة ناعسة تبرد أحياناً فتبدو وكأنها تقرص وجه الآخر، وتلتهب أحياناً فتحرق بأوراها عيني الآخر.

لكنها في الغالب الأعم، نظرات فاترة متثائبة لا مبالية. كان صاحبها يحتقر هذا العالم كله، ولا يرى فيه سوى أقزام لا يستحقون الاحترام.

سأله المحامي بعد أن مرت كتلة الصمت الثقيل الأسود:

- ماهو تعليقك على أقوال الشاهد؟

حرك عاصي قدمه يمنة ويسرة في وجه المحامي.

اصطدمت نظراتهما، ففرت نظرات المحامي منذ الجولة الأولى.

قال عاصي كأنه يكلم نفسه:

- الشاهد كذاب.

التفت عاصي وانحنى نحو الأرض الحناءة هينة ثم بصق، سقطت بصقته على الأرض بسكينة وسلام. قال:

- كانا يلعبان، هي تركض وهو يركض، إنه مثل أخيها، ولم يطلق النار، ألم تقل إن الشاهد أطرش؟ كيف سمع صوت الطلقة

القاتلة؟

قال المحامي بإلحاح:

- ولكنه شاهد معتصم يسدد البندقية نحوها، وهي تركض، ثم شاهدها تسقط على الأرض.

عينان باردتان لا مباليتان تقولان:

- لا جدوى من كل هذا العبث.. أنتم تضيعون الوقت.

لكنه قال:

- وماذا لو رآه يسدد، ورآها تقع؟ كانا يلعبان، يلهوان، أنا أيضاً رأيتهما يركضان، ورأيت معتصم يسدد نحوها وسمعته يضحك، وسمعتها تضحك، ثم تعثرت قدمها بحجر فسقطت. أنا لست أصم، أنا لم أسمع صوت رصاصة، بل رأيتها تنهض وتنفض ملابسها ومعتصم يساندها، ثم مر طير سريع فأطلقت فوراً، تذكر أنني صياد محترف. لم أسدد، اعتمدت على حاستي السادسة، وأطلقت النار. عادت سهام إلى اللهو، عادت إلى الركض، فاعترضت طريق الرصاصة، لم أكن أتوقع أنها ستعود إلى الركض بعد سقطتها القوية، اعتقدت أنها تعبت من اللهو، معتصم تعب. فحين ركضت في المرة الثانية بعد سقوطها لم يطاردها.

أطبق عاصي فمه ثم عينيه، وكأنه يقول للمحامي:

بعد أن رويت لك الرواية التي مللت روايتها

- والآن.. أغرب عن وجهي، أريد أن أنام.

قال المحامي مناشداً عاصي:

- سؤال أخير.. ثم أخرج: لماذا يلتزم معتصم الصمت؟

قال عاصي دون أن يفتح عينيه:

لأنه في حالة صدمة، لأنه لا يتذكر، إنه مريض يا أستاذ. مريض. ألم يقولوا لك إنه مريض؟

قال المحامي إنهم قالوا له إنه متخلف عقلياً ومعاق.

إنتفض عاصي كالملسوع وصاح بانفعال:

- هم متخلفون ومعاقون.

سكت، وسرعان ما أعاد سيطرته الكاملة على نفسه وقال:

- إنه مختلف.. وليس متخلفاً. ولا تسألني ما معنى كلمة مختلف، إبحث عنها في المعاجم والقواميس بنفسك.

الناس والحكاية

تشبث الناس بحكاية عاصي الليلكي، الرأي العام، الغالبية الصامتة، الغالبية التي ينهشها الضجر، الغالبية المملة الملولة، وانهمك العاطلون عن العمل، ورواد الصالونات السياسية، وزبائن الحلاقين، ومدمنو الكحول، والمؤمنون بالأركان الخمسة، والعلمانيون كلهم انهمكوا في تحويل الحكاية البسيطة القصيرة، إلى مسلسل تلفزيوني طويل، إلى رواية ضخمة، بل إلى مسلسلات مختلفة، وروايات متباينة، لكن بطلها « الشرير » واحد، انه عاصي الليلكي، ووجد الخيال الجمعي الذي كان يتثاءب عملاً ممتعاً يستغرق كل وقته، في متاهة فضاء له عشرات المخارج والمنافذ.

قيل إن عاصي لم يكتف بقتل زوجته البريئة الشريفة، وإنما استدرج رجلاً متخلفاً عقلياً، وامرأة بلهاء نصف مجنونة إلى زواج غير شرعي، لماذا؟ لأنه مريض، عاصي الليلكي وحش مريض عقليا

ونفسياً في الأعماق، مع أن ظاهره لا يوحي بذلك.

إنه يعشق التدمير من أجل التدمير.

قيل: لينتقم من الحياة التي حرمته والده وهو طفل. ومن أمه لأنها تزوجت رجلاً آخر يصغرها بسنوات رجلاً آخر، لماذا تزوجت أمه رجلاً آخر غير أبيه؟ ألم تكن تستطيع أن تستغني عن الجنس، وتبقى أرملة تعتني به؟ لماذا أدخلت غرباء إلى حياته، اخوانا غير أشقاء لا ينسجم معهم، من بيئة مختلفة تماماً عن بيئة أبيه؟ كل ذلك، لأنها لا تستطيع النوم وحدها في الفراش، بلا زوج يضمها ويبعث الدفء في جسدها؟

ما الذي غيرها؟ في السنة الأولى لوفاة والده، كان هو الرجل الوحيد في حياتها. صحيحٍ أنه صبي صغير، لكنه كان ينام إلى جانبها، لم يكن الفراش باردا، فلماذا تزوجت إذن؟ لم يكن الفراش موحشاً، فعاصي الفتى الصغير يشاركها إياه، كانت تبدو مكتفية به، لماذا غيرت رأيها فجأة، وقررت أن تتزوج رجلاً غريباً.

◆

سبحان الله، تحول معظم « الناس » إلى محللين نفسيين، وتحول قسم منهم إلى محققين ومخبرين، فراحوا يتلقطون أخباراً من هنا ووقائع من هناك عن طفولته وشبابه وزواجه.

◆

وانقسم الناس إلى ملل ونحل وشيع وأنصار.

أما أنصار المرحومة سهام، فقالوا إنه خرج من المعتقل بسبب رسالة وصلته من صديق مجهول (قد يكون معتصم.. إذ كان يتقن الكتابة) يحرضه فيها على سهام، ويزرع بذرة الشك في أعماقه ويقول له إن علاقتها مع عبدالكريم باتت حديث الناس، وإن شرفه صار أضحوكة، وهو المناضل الفارس، بات مضغة في أفواه الناس.

ومن الناس مَنْ قال إن مخبراً يلعب دور سجين في المعتقل، نقل إليه أخباراً مدسوسة عن خيانة سهام له مع عبدالكريم، بعد أن اقتنع المحققون أن قناة هذا الرجل عصية على اللين.

ومنهم من قال إن علاقة سهام بعبدالكريم علاقة أخوية، علاقة بريئة بين صديقين يجمعهما هوس واحد بالموسيقى الكلاسيكية.

فيرد خصومهما قائلين إننا لسنا في أوروبا، وإن صدر هذا البلد لا يتسع لعلاقة « صداقة » بين امرأة (زوجها في المعتقل بسبب إيمانه بأهداف يرى أنها نبيلة، زوجها الذي ضحى بحريته من أجل الإنسانية) وبين رجل أعزب معروف بأنه زير نساء من جهة أخرى.

ويزيد بعضهم:

- لو ظلت علاقة « الصداقة » و « الأخوة » المزعومة محصورة في زيارات لبيته حيث تعيش أمه، لأخذنا وأعطينا وناقشنا، أما أن يصل الأمر إلى حضور حفلات موسيقية معاً، سهام وعبدالكريم، فهذا كثير. رجاء.. لا تستهينوا بذكائنا.

أنصار سهام قالوا إنها كتبت له عن اكتشافها الجديد لعالم الموسيقى

الساحر، وأنها نادمة لأنها لم تتعرف إلى هذا العالم من قبل، وكتبت له أن القطار لم يفت بعد، وكتبت عن الدروس الخصوصية المجانية على يد عبدالكريم، صديقهما المشترك منذ أيام اللعب في الحارة، وإن عاصي كتب لها مشجعاً، وأقسم بعض غلاة أنصار المرحومة سهام أنه رأى رسائله بأم العين، وان سهام أطلعته على رسائل عاصي التي تشجعها على التوغل في عالم الموسيقى، وأنه قال في إحدى رسائله:

- في الساعة الثامنة من مساء كل يوم دندني لحن أغنية «زوروني كل سنة مرة حرام»، وسأدندنها أنا في ذات اللحظة. وسيتكفل الفضاء بحمل ذبذبات صوتينا إلى لقاء حميم في مكان ما، في زمن ما، لأن الصوت لا يفنى. يظل هائماً في الفضاء.

◆

رفاقه في المعتقل أجمعوا على أنه لم يقل لهم إن زوجته تدرس العزف على البيانو، ولم يلمح ولو مرة إلى أنه يحب الموسيقى.

مدير المعتقل، وهو من أقارب سهام، قال إنه كان يراقب رسائل المعتقلين إلى أهلهم، ورسائل أهلهم إليهم، وإنه كان يقوم بتلك المهمة بتكليف رسمي، وإنه راقب مئات الرسائل، وإنه لا يتذكر ما جاء في رسائل إلى عاصي أو رسائل عاصي إلى ليلى. لكن حاسته السادسة تقول له انهما تناولا هذه القضية، وإنه يعتقد، إذا لم تخنه الذاكرة، والذاكرة خؤون، أن عاصي كتب لها مشجعاً معرباً عن سروره لأنها اكتشفت عالماً جديداً، أي عالم الموسيقى .. والله أعلم.

◆

وقيل أيضاً إنه شجعها على دراسة الموسيقى، لكنه عندما عرف أن عبدالكريم هو أستاذها امتعض، لكنك تعرف عاصي إنه لا يعبر عن مشاعره إلا فيما ندر، وتعرف أنه شخص انطوائي أصلاً.

أصحاب هذا الرأي يصرون على أن عاصي شجع سهام فعلاً على تعلم الموسيقى، لكنه اعترض على المعلم، وكتب لها: ألا يوجد أستاذ موسيقى في المدينة كلها سوى عبدالكريم العيسم؟

ولعل اعتراض عاصي على المعلم لا العلم نبع من معرفته المسبقة بسمعة عبدالكريم العيسم السيئة كزير نساء.

◆

أما أنصار عبدالكريم العيسم فقد قالوا إنه فنان، ليس زير نساء بالمعنى المبتذل للكلمة، لكنه كان فناناً أعزب ويختلط كثيراً بما يسمى الطبقة الأرستقراطية التي تضم الكثير من النساء الغربيات، متزوجات وعازبات، وإنه لم يكن يفرض نفسه على المعجبات به، ولكنه لم يكن، أيضاً، يدافع عن عفافه إذا ألمحت امرأة عربية أو أجنبية إلى أنها مهتمة به.

عبدالكريم العيسم ليس قديساً، لكنه ليس زير نساء مبتذل كذلك. ولنعترف أنه تمتع بخصال تثير فضول بعض النساء اللواتي ينتمين إلى دوائر اجتماعية معينة، فقد كان يتقن الإنجليزية والطليانية والفرنسية بالإضافة إلى اللغة العربية.

وكان يحفظ عشرات الحكايات العالمية المسلية، والنكات المثيرة، واعترف بعض أصدقائه المقربين أنه كان يذيع لهم أسرار علاقاته مع النساء. ولم يكن يحرص على كتمان أسماء النساء أمامهم، ولا حتى النساء العربيات المحليات؛ لأنه مزهو بنفسه، ويعتقد أن الناس ينظرون إلى الموسيقي على أنه رقيق رقة النساء، مرهف رهافة الإناث. ربما.. ربما.. كان هذا السبب يدفعه إلى المبالغة في إقامة علاقات مع النساء، والحديث لأقرب الأصدقاء عن تفاصيل تلك العلاقات، غير مكترث بكتمان أسرار الأسماء والعائلات، إلا أنه كان شديد التحفظ والحيطة والحذر إذا تعلق الأمر بامرأة تنتمي إلى عشيرة ذات شوكة. أما سهام فلم يأتِ على ذكرها أبداً، لا من قريب ولا من بعيد، في هذا السياق، فإذا تحدث عنها، تكلم باحترام وتقدير شديدين واضحين.

◆

بعض الخبثاء من خصومه علقوا على هذه العبارة الأخيرة أنه كان يحرص على تكلف تصوير علاقته بها بالأخوة والصداقة البريئة التي تمتد إلى أيام الطفولة، من باب الدهاء والتمويه. وقال أحد هؤلاء إنه سمعه مرة يقول إن أهله وأهل سهام مثل أسرة واحدة. ومثل هذا الكلام دفاعي، لا يقوله إلا متهم مذنب، خصوصاً حين يتكرر في غير حالة، وبإلحاح لافت للنظر.

◆

بعض المحايدين رأوا أن ظاهرة مرافقة سهام لعبدالكريم إلى حفلات الموسيقى الكلاسيكية، غير مقبولة في مجتمع كمجتمعنا، حتى لو كانت العلاقة بينهما بريئة حقاً. كان ينبغي أن تقف علاقة الصداقة الموسيقية عند حدود الدروس الخصوصية، ويفضل لو أنها كانت تتم دائماً بحضور أم عبدالكريم؛ لأن مجتمعنا لا يحتمل ذهاب امرأة زوجها معتقل إلى حفلة موسيقى كلاسيكية، أو أي حفلة أخرى، مع رجل غريب، ولا حتى مع ابن عمها أو ابن خالها، خصوصاً إذا تكررت تلك الدعوات بشكل لافت.

ماذا سيقول الجيران حين يتوقف عبدالكريم العيسم بسيارته بعد الساعة العاشرة ليلاً عند بوابة بيت سهام (تذكروا أن زوجها معتقل سياسي بعيد) ويبصرون سهام تترجل من سيارته، وتودعه وتشكره على الليلة اللطيفة؟ وأقسم أحد الجيران أنه سمعها مرة تدعو عبدالكريم إلى دخول بيتها بعد الساعة العاشرة ليلاً.

قال إنه كان يطل من الشرفة، فرأى سيارة عبدالكريم الفخمة تتوقف عند بيت سهام (بيت عاصي) وأن سهام ترجلت، وكانت متبرجة بشكل غير عادي، وقبل أن تغلق باب السيارة قالت لعبدالكريم:

- ما رأيك بالدخول؟ تفضل.. فنجان قهوة.

وإن عبدالكريم قال إنه لا يشرب القهوة بعد الساعة السادسة مساء لأنها تسبب له الأرق.

لكن.. لم يؤكد أحد من الجيران هذه الرواية.

◆

أما هيام فقد تساءلت:

- لماذا لم تلجأ إلى السرية في علاقتها مع عبدالكريم؟ لماذا سمحت بأن تكون علاقتهما علنية؟ إنها لا تفهم. لماذا لم تكن العلاقة سرية، بحيث لا يعلم بها إلا الله سبحانه وتعالى؟ ولم تعثر هيام على جواب لسؤالها سوى: الغباء.

« سهام غبية حمقاء، مثل لص يسرق مخفر شرطة »

وكانت تقول:

- أنا ومعتصم، على سبيل المثال، علاقتنا سرية، لماذا لم تقتد بنا؟

سهـــام

أيها الحبيب العاصي:

نظرة عاصي غامضة متعجرفة، يا الهي كم أعشق تلك العجرفة في هاتين العينين، ذلك الغموض الساحر، تلك القسوة الكامنة، تلك الرهافة الحادة.

هكذا كنت أفكر أيام كنت أعتقد أنني أحبك من طرف واحد.

هل تذكر؟ كنت تمر من أمامي كأنك قيصر مغرور، وكنت تلقي نظرات متعجرفة من عليائك أيها الشائق. كنت أحبك وأبغضك، أحقد على تجاهلك لي، ومساواتي بفتيات الحارة.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لن أنساه، حين التقينا عند خاصرة الضاحية، ابتسمت في وجهك، فلم تبتسم، دنوت مني وقلت بلهجة المعتد بنفسه:

- ألا تريدين أن أعلمك أرقى فن في العالم؟

إضطربت، ارتبكت، لم أفهم، لم أعرف إن كنت تداعبني أو تكلمني بجدية، وانتشلتني من ارتباكي هي أضافت:

- فن الحياة، الحياة فن، ومعظم الناس لا يتقنونه، أنا أستاذ فذ محترف. هل تريدين أن أعلمك فن ممارسة الحياة؟ أم تريدين أن تظلي مثل معظم الناس ميتة تعتقد أنها حية، أو مثل أولئك الناس الذين يعيشون عيشة الحيوان أو الجماد أو النبات.. ويعتقدون أنهم بشر؟

أتتذكر؟ يا الهي، كاد قلبي يسقط بين قدمي، باغتتني طريقتك المباشرة الواثقة في الحديث. هكذا تدخل الموضوع مباشرة دون مقدمات طويلة مملة تقليدية.

أتتذكر؟ تمالكت نفسي وقلت لك:

- أريد أن أعرف عدد الطالبات قبل أن أقرر.

يا لجرأتي التي فاجأتني! هل تتذكر ماذا قلت؟ لاشك في أنك تتذكر. قلت بلهجة علامة فريد عصره وأوانه:

- لقد اصطفيتك من دون الناس جميعاً، لتكوني تلميذتي.

ثم تحولت إلى مريدة، إلى حوارية من حوارييك.

هل تتذكر كيف عرفتني إلى عالم الفلسفة والشعر والسياسة؟

لم تكن تحب كلمة سياسة وسياسي، ترى فيهما ابتذالاً. كنت تميل إلى لقب «الصعاليك النبلاء» أو «جيل القدر» أو «الأنبياء الصغار»، كنتم تريدون تغيير الإنسان قبل تغيير العالم. هل تتذكر حديثك الدائم عن قرب ولادة عصر الإنسان الكامل والعالم

الكامل، الإنسان الكامل الذي قطع صلته بالحيوان.. بالوحش نهائياً، وبات شبه ملاك؟

الآن أدركت بعد أن وقفت على عتبة عالم الموسيقى، أن العالم الكامل البشري الوحيد هو عالم الموسيقى الكلاسيكية، لا عالم الثورة العنيفة والانقلابات الدموية. وأن الإنسان ناقص، هذه قاعدة، لكنه يتحول إلى ملاك حين يغمر نفسه في بحر الموسيقى الكلاسيكية، وهذا استثناء، حال استثنائية تأخذك إلى الاشراق والكشف والحلول والغناء في الكمال، كمال النشوة، الحياة الكاملة، ثم تهبط رويداً رويداً عائداً إلى العالم الواقعي الناقص، بعد أن تخرج من عالم الموسيقى بساعات وساعات، ليتك كنت موسيقياً لا سياسياً. حين يطلقون سراحك سوف أشترط عليك أن تدخل عالم الموسيقى، عالم الكمال، بمرافقة جارنا عبدالكريم وإلا عاقبتك. إذا رفضت دخول عالم الموسيقى الساحر، سأحرمك من الحلوى، وأنا أدرى الناس بعشقك المهووس الطفولي للحلوى.

◆

كان عاصي يقرأ الرسالة بإعجاب وافتتان لكن عبارة مثل: « ليتك كنت موسيقياً لا سياسياً » تتحول إلى وجع داخلي، إلى غضب عارم مكتوم، إلى إحساس مبهم بالإهانة. عبدالكريم ابن الـ... يقدم للناس العالم الكامل على طبق من الفضة، وأنا المعتقل الضحية المناضل سياسي دموي؟ عبدالكريم المخنث الذي يخاف من الناس، الذي لا يعرف كيف يجتاز الشارع إلا إذا أمسكت أمه

بيده، عبدالكريم هـذا سيصبح دليلـي إلى العـالم الكـامل والإنسـان الكامل إذا أطلقوا سراحي. عبدالكريم الذي كان مخنثـاً ظـاهراً أيـام الصغر، تحول إلى مخنث باطني الآن.

لا.. هذه العبارة « أشترط عليك أن تدخل عالم الموسيقى بمعية جارنا عبدالكريم وإلا.. »

ألا تعلم الحمقاء معنى كلمة بـ « معية » ؟

أم أنهـا تقصدهـا، تقصـد أن عبدالكريـم المخنـث أيـام زمـان يصلح للعب دور الدليل، ودليل مَنْ؟ دليلي أنا، دليـل عـاصي الـذي يرفـض أن يعلـم أمثـال عبدالكريـم فـن الحيـاة، يرفـض أن يدخـل مدرسته شخص مخنث.

هـل تسـمين شـخصاً لا يعـرف مـن الحيـاة سـوى موسـيقى كلاسيكية تنفر منها الأذن الشرقية... رجلاً؟ يـا إلهـي... مـا الـذي يحـدث هنـاك في العاصمـة، في غيـابي؟ هـل فقـدت سـهام عقلهـا، موسيقى كلاسيكية؟

هذه لعبة البرجوازيين والمدعين والمزورين.

◆

كل هذا الحديـث يبقـى جوّانيـاً، لا يسـمعه أحـد، كـل هـذا الحـوار مـع النفـس بتفكـير صـامت، يحفـظ في قاصـة عقـل عـاصي الفولاذية العصية على الاختراق.

بعد الإفراج عن عاصي

الأصدقاء والمعارف والجيران والأهل الذين جاءوا لتهنئة عاصي باستعادة حريته أجمعوا أنه كان شخصاً آخر، غير عاصي الذي كانوا يعرفونه قبل الاعتقال.

قال قائل منهم إنه بدا بارداً نائياً بل وتصرف مع أصحابه بوقاحة أحياناً. كثيرون جاءوا إلى البيت لتهنئته قالوا إنه لم يقف على قدميه ليصافحهم، وإنه ظل جالساً على الكنبة، يرفع نفسه قليلاً، كأنه يوشك على النهوض، لكنه لا ينهض، ويكتفي بمصافحة الآخر وقد اتخذ هيئة من يوشك على النهوض الكامل للمصافحة والعناق وتبادل القبل، لكنه كان يكتفي بوقفة غير كاملة، ويمد يده «من غير نفس» لمصافحة المهنئ، حتى ظن بعضهم أن عاصي مصاب بمرض ما في ساقيه. لكنهم سرعان ما اكتشفوا أنه كان يستقبلهم -جميعاً باستثناء معتصم- على مضض. كانوا يتسمون في

وجهه وهم يقولون:

- الحمد لله على السلامة.

فلا يرد على الابتسامة بمثلها، وإنما يومئ برأسه ولا ينطق، لا يقول رداً مثل: شكراً، أو «الله يسلمك».

لم يكن يتكلم أبداً. يسأله شخص عن الحياة في المعتقل من باب المجاملة في الغالب الأعم، فيقول باقتضاب لا يخلو من عدوانية خفية:

ألا تعرف ماهو السجن؟

أو:

- السجن سجن.

أو:

- المعتقل؟ .. كان رحلة جميلة تمنيناكم معنا.

لم يقل هذا التعليق بدعابة، كانت رائحة الحقد والغضب والمزاج العدواني، تفوح من كلماته.

- المعتقل؟ جنة الله على الأرض، لم ينقصنا سوى وجودكم معنا.

فإذا ظن أحدهم أنه يداعبه وهمَّ بالضحك، رماه عاصي بنظرة قاسية جارحة متجهمة جمدت مشروع الضحك في بدايته.

◆

كانت نظراته ديناميتية خطرة صارخة، لكن الناس لم ينتبهوا، فإذا انتبه أحدهم أرجعها إلى الإرهاق والعزلة التي طالت، والغضب

العارم الموجه في اتجاهين مختلفين: الحزب الذي أعلن عن فصله جراء «انهياره واستنكاره» والحكومة التي زجته في المعتقل أصلاً. لم يزره أي رفيق من غير المعتقلين مهنئاً، واتهموه بالتخاذل، وقالوا إن عجرفته السابقة وكبرياءه الشامخة كانتا قناعاً يخفي هشاشة تبعث على الرثاء.

التحقيق حول الجريمة

حين بدأ رجال الشرطة يوجهون الأسئلة اعترف بكل شيء
قال إنه منذ أن انتهى تدفق المهنئين باشر تحقيقه معهـ
واستخدم كلمة « استجواب » قال إنه استجوبها عدة مرات حـ
علاقتها بعبدالكريم.

لم ينكر ضربها بقبضتيه وقدميه.

والكدمات التي رآها الجيران على وجهها؟

قال إنه تسبب بها وهو يحقق معها، ويستجوبها حول حقيقة
علاقتها مع عبدالكريم.

كانت طريقة إجابته على أسئلة المحققين تثير غضبهم، ولـ
سيطرتهم على أعصابهم، لعذبوه.

كان بارداً متعجرفاً، يشبك ساقاً على ساق، ويضع يديه
جيبي سرواله، والسيجارة لا تفارق زاوية فمه.

كثير من الأسئلة واجهها بصمت ونظرة ساخرة، نظـرة تكـاد تضحك، تكاد تقهقه سخرية، كأنـه لا يـأخذ التحقيـق على محمـل الجد.

مرة نهره ضابط وقال:

- أخرج يديك من جيبك.

ببساطة مذهلة، رماه عاصي بنظرة ساخرة و لم يخرج يديه مـن جيبه، الضابط اعتبر أن المسألة باتت مسألة كرامة شخصية، قال مرة أخرى:

- أخرج يديك من جيبك وإلا حطمت وجهك.

لم يعلق عاصي بكلمة، و لم يخرج يديه من جيبه، عندها خرج الضابط عن طوره واندفع نحوه رافعاً يده ليصفعه، أخـرج يديـه مـن جيبـه ورفعهمـا مستسـلماً، فتوقـف الضـابط كابحاً غضبـه، إلا أن عاصي ظل رافعاً ذراعيه كالمستسلم وقال:

- الجبناء فقط، يعتدون بأسلحتهم على رجلٍ أعزل.

إمتقع وجه الضابط، لم يفهم، لم يكنٍ مسلحاً. إذن مـا الـذي يعنيه هـذا المعتـوه؟ إنـه يسـتفزهـم استفزازاً مدروسـاً بعنايـة، بحيـث يوصل إليهـم رسـائل التمـرد دون أن يتيـح لهـم فرصـة الـرد الـذي يحررهم من غضبهم.

أحد المحققين قال وقد طلب أن ينسحب من التحقيق في قضية مقتل سهام إن عاصي كان يلعـب دور المحقـق، ويدفـع المحققـين إلى لعب دور الضحية.

طبعاً، هذا كلام مبالغ فيه، لكنه لا يخلو من مصداقية.

أحد الضباط قال إن عاصي يلعب بدمه قالها لعاصي مباشرة. قال مهدداً:

- أنت تلعب بدمك.

رد عاصي بفتور ولا مبالاة:

- وهل يحرم القانون لعب المواطن بدمه؟ ثم إن اللعب بالدم أفضل من اللعب بأشياء أخرى.

وجه الضابط لكمة قوية إلى بطن عاصي، حمد عاصي الله في سره. لو كانت اللكمة موجهة إلى خده، أو لو تحولت إلى بصقة على جبهته لخاض مع المحققين معركة حياة أو موت، معركة موت طبعاً، الكبرياء كلها في الوجه، وليست في أي مكان آخر، هذا بالنسبة للرجل طبعاً، للذكر.

ربط القتل بزواج الغريبين

يتساءل بعض الناس عن السبب في ربط حكايــة مقتـل سـهام بحكاية زواج معتصم وهيام غير الشرعي. تم زواجهما الشـرعي بعـد أن خضع رب أسرته ورب أسرتها للأمر الواقع، رب أسرة معتصم، ورب أسرة هيام يحملان عاصي مسـؤولية لعبة زواجهمـا الخطـيرة، وحكاية أسبوع العسل.

لو لم يخطط عاصي لزواجهما، أو بـالأحرى الزنـا بينهمـا، لمـا عرفا كيف يتدبـران أمرهمـا. لقـد لعـب عـاصي دور العقـل المدبـر لزواجهمـا غـير الشـرعي الـذي قـدر أنـه سـيجبر عائلتيهمــا علــى زواجهما الشرعي، لأن معتصم لا يعـرف كيـف يخطـط، وهيـام لا تعرف رأسها من قدميها، وما حدث بينهما كان ترجمة لخطة معقدة لايستطيع أن يدبرها إلا داهية غير عادي، يعني عاصي طبعاً.

لكن الأغلبيـة الصامتـة التي انهمكت في تحـويل الحبـة إلى قبـة

لقتل الوقت، حاكت روايات وروايات.

قيل إن عاصي خرج من المعتقل يشك في كـل صديـق، يعتبر أنه ضحية مؤامرة خطط لها أصحابه، وأنه شعر أن لا إنسان يستحق ثقته سوى معتصم المختلف، هو كـان يسـميه «المختلـف»، الآخـرون سموه المعتوه. أما هيام فلم تكـن تعـرف رأسـها مـن قدميهـا، لكنهـ تعرف شيئاً واحداً بوضوح ودون التباس:

عشقها لمعتصم.

هيـــــام

الغيمة السوداء، السحابة التي طلعت مـن الأرض إلى السـماء، كلها طيور أبابيل ترمينا بجراثيم ومايكروبات وحصبة. صحيح أننـا، أنـا ومعتصـم، لم نكـن هنـاك حـين قصفـت الطـائرات الأمريكيـة المستودع العراقي العامر بالجراثيم والمواد الكيميائية المسمومة، لكنهـا جاءت إلينا، نحـن لم نذهـب إليهـا، هـي جـاءت، الأطبـاء في لنـدن وواشنطن يدرسون أعراض مرض عاصفة الصحراء، نحن ضحايا هذا المرض، هذا المرض لا يميز بين أمريكي وانجليزي وعراقي. حين قلت لمعتصم إن هذه السحابة الجرثومية الكيميائية أثرت علينا، قـال إننـا ولدنا هكذا، ولا علاقة للغيمة المسمومة بنا.

الأحمق، الجراثيم التي تجـري في شـرايينه جعلتـه أحمـق، لكنـي أحب حماقته، الجراثيم الكيماوية التي تنشـقتها أنـا أقـل ضـرراً علـى عقلي مقارنة بعقله.

لكنني أحبه، إنه ملاك، نصف ملاك!

وحين أخذنا صديقه عاصي إلى بيته الفخم تزوجنا، نمنا عاريين في سرير عاصي المزدوجٍ الفخم. كانت سهام قد قتلت، وأصبح البيت، القصر، مهجورا، اعطانا عاصي غرفة نومه وقال إنه سينام في غرفة أخرى ويحرسنا.

قال لي إنه جدار شاهق ضد عيون العالم، إنه سور ينبثق من الأرض وينطح السماء.

نمنا أنا ومعتصم في سرير واحد، شممت رائحة البحر الأسود تفوح من صدره. حين بدا يلعب دور الضيف دعابة، قلت له:

- ألست نصف ملاك؟

لكنه لم يصغ، وشعرت بأنني أدور، ثم أدوخ، أحسست جبلاً يجثم على صدري، لكنني خفت، ارتعبت، استسلمت، كان معتصم يداعبني دعابة سمجة، قلت له إنه ثقيل دم وإنه سمج، وإنه أوجعني.

وكان عاصي في الصالة يصغي لموسيقى غريبة، موسيقى غير عربية، ثم رأيت نقطة الدم، فظننت أن معتصم جرح نفسه، صرخت، ناشدته، قلت:

- معتصم.. لا تمت.

لا أدري أي زمن مر علينا ونحن في قصر ابن عم عاصي. ولم أعرف أنني صرت اثنين إلا بعد أشهر.

وتدخلت أمي وقالت:

- لا حول ولا قوة .. ما جرى جرى. لنزوجهما رسمياً ونسكنهما في بيتنا، ونرعهما.

قال والد معتصم متجهماً:

- وماذا بعد أن نموت؟

قالت أمي بهدوء:

- لكل حادث حديث.

ولم أفهم كيف يكون لكل حادث حديث، فالحادث يقع ويراه عشرات الناس، وكل واحد يروي حديثاً مختلفاً عمّا رآه، فلماذا تقول أمي «لكل حادث حديث» ينبغي أن تقول «لكل حادث.. أحاديث، لا حديث واحد».

معتصـــم

تقول الرواية إنني عنزة سوداء وسط قطيع من الغنـم الأبيـض، أو من الغيم الأبيض. تقول الرواية التي لا أفهمها إن القافلة أضـاعت الطريق. رواية « الغرباء الثلاثة » أو « الثلاثة الغرباء ».

وقال أبي الذي لا يضحك للرغيف السخن:

- ربما أن ما وقع قد وقع، فدعونا نزوجهما وليسكنا في بيتنا.

قال أبومعتصم:

- ولماذا ليس في بيتنا؟

قال رب أسرتي:

لأن بيتنا أوسع، وفيه خادمة سيرلانيكية.

ولكن كيف يتزوج شبه الملاك شبه الذئـب؟

حين أصحو في الصباح أرى النـاس والأشـياء بوضـوح، لأن الشمس مشعة، والصيف لطيف، لكن عندمـا أغسـل وجهـي، يبـدأ

الشتاء: ضباباً وأنواراً وأنا لا أرى أي شيء. إنني أشم رائحة البحر الأسود، لكنني لا آراه، لا أرى سواده.

لكل إنسان فصله الخاص، اليوم أمطرت السماء في رأسي وانتشر الضباب، مع أن الظاهر المزور يشع بشمس ترمي شعشعتها الدافئة الحميمة على الشوارع والناس، لكن البرد يقرصني.

أنا الملاك الحارس، الذي يحرس عاصي، ينبغي أن لاينهمك في تفاصيل الحياة، إنه فيلسوف فذ، أمثالي يقومون بدوره في تفاصيل الحياة اليومية، وهو يتأمل.

حين سمعت سهام تقول له بعد أن أطلق سراحه:

- أنت مريض!

صفعتها، صفعتها بقوة، ترنحت متمايلة ثم سقطت على الأرض، صرخ عاصي في وجهي يؤنبني، لكن حماية المصطفين المختارين المخلصين لها ثمن، وأنا رجل حماية.

سمعت ورأيت ذلك الرجل الأصلع يزعق في وجهه:

- جبان، خائن، مستوزر.

صفعته على خده، ثم سددت قبضتي إلى ذقنه فغاب عن الوعي ثلاثة أيام. أنا الوحيد الذي يعرف لماذا استنكر عاصي واعترف؛ لأن العاهرة زوجته خانته مع عبدالكريم.

عند « الحاووز » أمسكت عبدالكريم وقلت له:

- إبتعد عن زوجة صديقي.

ولعب دور الممثل الذي لا يفهم.

ضربته ، سال الدم من أنفه ومن فمه ، لكنه لم يتعلم ، يبدو

أن الرجل قاتل أو مقتول.

إنني أفهم هذا العالم، عاصي يفهمه. إنه في عيني أسود أو أبيض. عاصي يقول إنه ملون، إذن أنا مصاب بعمى ألوان.

إنه أسود، أقصد بطل الرواية، وعشيقته شقراء، والغريب الثالث نصف أسود ونصف أبيض.

أنكر عاصي التهمة، ثم سافر إلى أوروبا، وعاد ليقول إنه قتلها، قتل سهام. ما الذي غير موقفه؟ اجتمعنا، سألته، قال إنه رأى كل شيء، وسمع كل شيء، وقال كل شيء، وقد آن الأوان لموته سيتخذ مجلسه على كنبة في صالة الانتظار ولا يتحرك انتظاراً للموت.

◆

عاصي :

إنني ميت، لا، لست مستقيلاً أو متقاعداً من الحياة، إنني ميت.. ميت ينتظر الموت.

علاقة الجريمة الثانية بالأولى

ولكن لماذا ربط الناس بين مقتل سهام وزواج هيام ومعتصم؟ خصوم عاصي زعموا أن عاصي ولد شرير، إنه حاقد على العالم لأسباب ذكرناها. وأنه خطط لزواج معتصم المسكين وهيام المريضة، انتقاماً من الناس والقيم والمفاهيم وسخرية بالقانون والناموس.

وانقسم الناس حول هذه القضية أيضاً (لاحظوا أنهم نبشوا ذاكرتهم وأحيوا القضية بعد أن وأدها النسيان لكن « اغتيال سهام ذكر الناس بقضية هيام ومعتصم فنبشوها وأحيوها من جديد وربطوها بالجريمة الثانية »)

منهم من قال إن عاصي غسل مخ معتصم وهيمن على دماغ هيام، فأقنعهما أن زواجهما حق من حقوقهما، وأن أهلهما لا يملكون الحق في الحيلولة بين اكتمال عشقهما بالزواج.

ومنهم من قال إن عاصي أعد للمؤامرة الأولى بذات الإحكام والدقة التي خطط فيها للجريمة الثانية.

فهو الذي غسل دماغ الاثنين، واستغل مرضيهما وأقنعهما بالزواج غير الشرعي، لفرض الزواج الشرعي على الأهل فرضاً؛ ليكسر إرادة ربيّ الأسرتين، ويخضعهما للأمر الواقع.

ومع اختلاف المواقف من هذه الحكاية القديمة التي نبشت من جديد، وأخرجها الناس من مستودع النسيان، اختلفت الروايات أيضاً.

قيل إن عاصي انتهز فرصة سفر أحد أقاربه وأسرته إلى أمريكا، واستعان بلص محترف عرفه أيام المعتقل، وتسللا إلى المنزل الفخم بعد أن عالج اللص المحترف إحدى النوافذ « بعتلة » أو « قضيب حديدي ». ومكث ثلاثتهم أسبوع شهر عسل غير شرعي في قصر ابن عمه الخاوي.

وفي رواية أخرى أضاف بعض الناس شخصية أخرى شاركت بشكل أو بآخر في المؤامرة « الحارس ».

بعضهم قال إنه تواطأ بعد رشوته، وبعضهم قال إن معتصم قيده وضربه وحبسه في قبو القصر، وكان يزوره كل يوم فيضربه، ثم يقدم الطعام والماء له.

◆

وفي رواية ثالثة تتضارب مع الروايتين الثانيتين قيل إن عاصي استدرجهما (وقيل خطفهما بإرادتهما) إلى بيته هو، وحثهما على

المعاشرة، وإن هيام ومعتصم اختفيا أسبوعاً كاملاً في بيت عاصي، وقال أصحاب هذه الرواية إن اللؤم بلغ بعاصي حد المشاركة مع أبويهما في البحث عنهما.. وهما في بيته، وهو الذي اختطفهما وأقنعهما بالفرار، والزواج غير الشرعي في بيته، لفرض الأمر الواقع على أهلهما المساكين الطيبين.

معتصـــــم

انتزعت « طربوش » جدي عن رأسي حين انهمر المطر، قلت: « دع دماغك يغتسل »، المطر جميل، صفرت من وراء السور، أطلقت الصفير المعهود، فخرجت هيام، واقترحت عليها أن نتسابق تحت المطر، من هنا حتى الجامع الكبير، فوافقت، وأنا خلعت طربوش جدي. وركضنا وسبقتها، ولكن عندما وصلنا إلى الكنيسة، توقفت هيام لاهثة، استندت بيدها إلى جدار وكانت تلهث وقالت إنها تعبت وانقطع نفسها ولن تستطيع أن تصل إلى الجامع. فقلت لها أن تجلس على الأرض وتلتقط أنفاسها، وخفت أن تموت. لكن لونها الطبيعي عاد إلى وجهها الشاحب، فوضعت طربوش جدي (رحمه الله) على رأسي، وفكرت أن أترك شاربي يكبران وأبرمهما مثلما يظهر جدي في الصورة، إنني أشبهه، الخالق الناطق، نسخة طبق الأصل. قلت إذا تركت شاربي يتخذان شكل شاربي جدي،

ظني الجيران هو لا أنا، خصوصاً إذا لبست الطربوش.

وللطربوش عدة فوائد أخرى، أهمها، محافظته على العقل، لأن العقل يطير إذا وقع على حادثة غريبة. أعرف رجلاً طار عقله بسبب الحرب الأهلية في لبنان، كان يسكن مع عائلته في بيروت وعندما بدأ القصف العشوائي، كان ابنه في الشارع يقف في طابور أمام فرن خبز. القذيفة هبطت على رأسه، لو كان يضع طربوشاً على رأسه لما تناثر إلى أشلاء، ذاكرته على الرصيف، خياله هنا، أحلامه هناك، خواطره هنالك، كلها تبعثرت مع انفجار رأسه.

عندما سمع أبوه بالحادث طار عقله، وعاد مع عائلته إلى هنا، لكن عقله لم يعد أبداً. أبي قال إن عقل هذا الرجل المسكين طار. الطربوش قفص يمنع العقل من الفرار، من الطيران، أحياناً قد يطير العقل من الفرح أيضاً، لكن أبي يمنعني من وضع الطربوش على رأسي خارج البيت، يقول إن الناس سيضحكون عليَّ. قال إنني سأكون أضحوكة.. مسخرة.

طيب لماذا لم يصبح جدي أضحوكة ولا مسخرة حين كان يلبس الطربوش؟ أبي لا يحب جدي، لذلك يمنعني من وضع الطربوش على رأسي، لعله كان يضربه في صغره.

هذا ما قلته لهيام من وراء السور، قبل « الهروب الكبير » عاصي سمى هروبنا وزواجنا « الهروب الكبير » قال إن « الهروب الكبير » عنوان فيلم لن ينساه في حياته، أنا لم أر هذا الفيلم، ولعلي رأيته ونسيت أنني رأيته.

هذا ما قلته لهيام من وراء السور. هيام قالت إن النسيان سببه

انفجار مستودع الأسلحة الكيميائية والجرثومية في العراق. قالت إن طائرات الشبح الأمريكية قصفته، قالت:

- صحيح أننا لم نذهب إلى العراق، لكن سحابة دخان حاملة للجراثيم والميكروبات والمواد الكيميائية المسمومة جاءت إلى هنا، مرت من سمائنا، عبرت فضاءنا، عبرت جونا من طائرة، قالت إنها رأت سحابة سوداء كبيرة تعبر سماء المدينة مع الصواريخ التي انطلقت من العراق، وحلقت في أجوائنا، وهبطت كالزلزال.. أقصد كالنيزك على تل أبيب.

◆

حين سألوني عن « الحادث » قلت إنني لا أتذكر لكني أعتقد أنني قتلتها لا عاصي، عاصي يكذب ليحميني، لأنه يحبني مثل شقيقه لو كان له شقيق.

سألوني: لماذا أعتقد أنني أنا الذي قتلتها لا عاصي، مع أنني لا أتذكر.

قلت لأنني أكرهها وعاصي يحبها، ولأن رائحة موتها، ونكهة دمها لم تفارق رأسي أبداً بعد أن دخلته. قلت إن المنطق يقول إنني القاتل الحقيقي لأنني كنت أكرهها، وعاصي كان يحبها، حتى بعد أن زرته مرة في المعتقل وحكيت له عن علاقتها بعبدالكريم.

الحكم المؤبد

حكموني بالسجن مدى الحياة، سألني أحدهم لماذا لم أزعم أنني قتلتها برصاصة طائشة، دون قصد، قلت إنني كنت آمل أن يحكموا عليَّ بالإعدام.

المؤبد، يعني مواصلة الموت إلى أن يأتي يوم الإعدام الطبيعي. بعد عدة « معارك » اخترعت أسبابها اختراعاً، واختلقت دوافعها اختلاقاً، نقلوني إلى زنزانة انفرادية، وهذا ما كنت أحلم به، أن أقيم في قبر لي وحدي، قبر لا يشاركني فيه أحد من المساجين.

أرقد على فراشي في الزنزانة أحدق في الجدار وأنتظر الشيخوخة، بعدها يبزغ الغياب الحقيقي، الاعدام.. ليس شنقاً ولا بالرصاص، بل بجلطة، سكتة قلبية، أو ربما سرطان .. السرطان موجع، السكتة القلبية أيسر.

معتصم

هذا هو الجامع، بين الجامع وبيتنا ثلاثمائة خطوة، حسبتها، أنا شخصياً.

مر رجل مترهل لكنه يبدو فاضلاً أنيقاً. توقفت، ترى أين أنا؟ هذه ليست مدينتي، إنني لا أنتمي إلى هذه المدينة، ولا إلى هذا الحي. أنا أجنبي هنا. لعلها مدينة لندن، ثمة ضباب هنا، لندن مدينة الضباب، عليّ أن أستوقف شخصاً وأسأله عن اسم هذه المدينة. ينبغي أن يكون رجلاً لا امرأة. إذا كانت امرأة سوف تعتقد أنني أتحرش بها سأعترض طريق رجل وأسأله عن اسم هذه المدينة. ولكنني لا أعرف اللغة الفرنسية، هذا الرجل البدين الأسمر ذو الشعر الجعدي يبدو عربياً، لعله يفهم اللغة العربية، اقتربت منه فجفل، سألته:

- ما اسم هذه المدينة لو سمحت...

ثم قلت بالإنجليزية:

- ثانك يو.. أي شكراً.

إمتقع وجهه بعد أن أجفل وقال وهو يبتعد بسرعة كأنني مصاب بالحصبة وقال:

- بارد وجه.. ثقيل دم.. نكتة سمجة.

لو لم يكن رجلاً كبيراً في سن أبي لأشبعته ضرباً. ما الذي جعله يحكم بأن دمي ثقيل؟ مع أنه لم يزنه. ثم من الذي قال له إن وجهي بارد ووجهي ليس بارداً، إنه فاتر، لا ساخن ولا بارد.

ثم رأيت مكتب تكسي، فعرفت أين أنا، ولما مررت بمطعم الشاورما، عرفت من أنا، رائحة الشاورما تذكرني بوجهي!

أحياناً أنسى نفسي، فأبحث عن مرآة أو واجهة محل زجاجية لأنظر إلى وجهي وأعرف من أنا. الآن، صرت أحمل مرآة صغيرة، أضعها في جيبي أينما ذهبت؛ لأن العثور على مرآة في الشوارع مسألة لا تخلو من صعوبة. مرة نسيت نفسي ودخلت محل حلاقة ونظرت إلى المرآة، فتذكرت نفسي، وحين غادرت المحل قال الحلاق إنني حمار، هتف:

- يا حمار.

لم أفهم لماذا قال إنني حمار، أنا لم أُسء إليه. كل ما فعلته هو استخدام مرآته للتعرف على نفسي. لم أحلق وأهرب دون أن أدفع، مثل تلك المرّة حين هربنا أنا وهيام وذهبنا إلى فندق، قلنا سنتزوج رغم أنوف أهلنا، لكن موظف الاستقبال رمقنا بنظرات مستريبة، حين قلنا له إننا نريد غرفة واحدة كلينا. سألنا إذا كنا نحمل جواز

سفر أو هوية. وحين قلنا إننا لانحمل هوية ولا جواز سفر ولا حقائب، لأننا لسنا أجانب، هددنا بطلب الشرطة. صفعته على وجهه، ولولا هيام جرتني بكل قوتها من ذراعي لمسحت الشارع به، لماذا يطلب لنا الشرطة؟ لم نفعل ما يؤذيه حتى يطلب لنا الشرطة، ثم.. حتى لو عرف أننا هاربان من أهلنا، ما علاقته هو؟ لماذا يتصل بالشرطة؟ ما دخله هو؟

كانت رائحة الفلافل تفوح من كلمات هيام، بعد أن أكلنا أربعة ساندويشات فلافل. أنا قلت للرجل أن يضع «شطة» في ساندويش هيام، لأنني أحب رائحتها: رائحة الفلافل مع الشطة، رائحة الفلافل بلا شطة لا تعجبني.

قلت لأبي إنني أريد جواز سفر. ضحك، قال:

- لماذا؟ هل تريد أن تدرس في جامعة أكسفورد أو جامعة هارفارد؟

قلت له إنني لا أريد أن أدرس في الجامعة وإن جواز السفر ليس للدراسة، وإنما للسفر.

أحياناً أشعر أنني أكثر ذكاء من أبي.

سهام قبل مقتلها طبعاً!

لم يستطع أن يفهم، إنه لا يريد أن يفهم، يرفض أن يتفهم، لا يحاول، قلت له إن الفراق الطويل يؤثر على الإنسان. ثم هذه أول ليلة تقضيها خارج السجن، أعطني مهلة. قال إنني لم أعد أحبه. قال إنني باردة مثل قطعة ثلج، وإنني لا أتجاوب معه. ذكرني بتواصلنا قبل الاعتقال، قبل سبعة أعوام. قال إنني كنت لبؤة سألني إن كنت أتذكر كيف كنت أعض منكبيه وأنبش أظافري في ذراعيه. قال إنه كان يسميني القنبلة الهيدروجينية.

سألني بلهجة تنم عن اتهام أو استنكار:

- هل تذكرين؟

قلت إنني كبرت سبعة أعوام. كنت أصغر، ثم قلت له إنني لم أمارس الجنس منذ سبع سنوات، ورجوته أن يمنحني مهلة.

زعق في وجهي مثل ذئب وقال:

- بل كنت تمارسينه مع عبدالكريم المخنث يا ابنة... هل طلبت إطفاء النور، حتى تتخيليه هو بدلاً مني في العتمة؟ كنت تحبين التواصل والغرفة مضاءة، هل علمك هو أن النوم في العتمة أفضل؟

وانهمرت دموعي، صرخت بأعلى صوتي، ضربني لأول مرة يمد يده عليَّ بعنف، بدأ يستجوبني ويحقق معي ويعذبني.

في البداية اعتبرت أن مجرد الخوض في هذه التهمة المهينة مسألة مرفوضة من حيث المبدأ. مجرد نقاش التهمة أو الرد عليها أو دحضها مهين لكرامتي جارح لكبريائي. لكنني استسلمت تعبت، ناقشته قلت له إنه يعرف منذ زمن بعيد أن نوعية عبدالكريم من الرجال لا تعجبني ذكرته أنني أحببت رجولته بل خشونته. قلت إن عبدالكريم ناعم ورقيق وإنني لا أحب الرجل الناعم الرقيق ذا التهذيب المبالغ فيه.. عبدالكريم من هذه النوعية.

قلت إنني أحببت الموسيقى لا الموسيقار.. ولكن بلا جدوى. أصيب بهوس الشك، لم يعد طبيعياً، صار يتجسس عليّ، يفتح حقيبتي باحثاً عن أثر من آثار عبدالكريم بدأ يفتح الرسائل التي تأتيني، يراقبها، يستجوبني يومياً، كلما أوينا إلى الفراش وأحس بما سماه قطعة الجليد: أي جسدي. مرة وصفه بأنه قطعة من الخشب، مرة توقف ونحن في عز التواصل وقال بسخرية سوداء بركانية:

- هل ترغبين في أن أحضر لك صحيفة تقرأينها بينما أقوم أنا وحدي بالتواصل؟ كي لا تشعري بالضجر إذا تأخرت. أم ننقل التلفزيون إلى غرفة النوم؟ الصحيفة لا تصلح لأنك تصرين على

إطفاء الضوء. ننقل التلفزيون وترقدين بوضع يمكنك من متابعة مسلسل ما، أو سماع نشرة الأخبار، إلى أن أنتهي أنا من حقي الذي أغتصبه اغتصاباً، أو واجبي الذي أقوم به وحيداً دون شريك.

بعد مرور شهر على الاستجواب والتحقيق والمراقبة والتعذيب، استسلمت، ركعت على قدمه، قبلتها، أقسمت على القرآن أنني لم أخنه ولم أفكر حتى في خيانته. ركلني وقال إن جسدي يقول عكس ما يقوله لساني، وإن الجسد أصدق من اللسان. سألته عما يقوله جسدي. قال إن جسدي يقول إنني أعشق رجلاً آخر، وإنني لم أعد أحبه هو، والدليل على ذلك أن طريقتي في التواصل معه في السرير، في العتمة، توحي له بأنني أقوم بواجب ثقيل.

الجيران رأوا الكدمات على وجهي، قلت إنني وقعت. قالوا إنهم سمعوني أصرخ، وسمعوه يشتمني.

تساءلت مرة وأنا أصغي إلى الموسيقى وحيدة، بينما كان هو خارج البيت:

- ترى هل حمد جني له؟ ربما كان محقاً في هذا الجانب على الأقل. ربما كنت أحاول معاقبته لا شعورياً، لأنه تركني سبعة أعوام من أجل حلم قد لا يتحقق، ولن يتحقق فالبشر بشر، والإنسان ناقص، والعالم ناقص، ولا يوجد شيء اسمه عالم جديد فاضل، وإنسان كامل بلا نقص.

الموسيقى وجدها عالم الكمال. الموسيقى الكلاسيكية، وهي، بالإضافة ربما إلى الإيمان العميق، قادرة على تصفية ضعف الإنسان..

مؤقتاً طبعاً، وليس على مدار الساعة. حتى الحلاج، لم يكن في حالة إشراق أو كشف أو حلول أو اتحاد على مدار الساعة طوال حياته.

الموسيقى الكلاسيكية تأخذني إلى عالم آخر، عالم الكمال السامي الذي يتكلم عنه عاصي. لكنه عالم مختلف عن عالم عاصي، غذاء الروح فيه، أهم من غذاء الجسد.

أي عالم عجيب عالم الموسيقى هذا؟ كتبت لعاصي عنه حين كان في المعتقل. قلت له إنه يبكيك ويضحكك ويذهلك ويشحذك في اللحظة ذاتها. كتبت له إنني ذهبت برفقة عبدالكريم إلى أمسية موسيقية وإنني في عتمة الصالة بكيت بصمت، دموعي انهمرت بغزارة وأنا أصغي إلى الموسيقى. لم تكن دموع حزن، إنها دموع نشوة غامضة. وانني تذكرته، فانهمر المزيد من دمعي، لأنني أحسست بعمق حبي له.

سألته عن مصدر معلوماته، عن الاثباتات، عن دليل واحد يشير إلى أنني أقمت علاقة مع عبدالكريم. قال إنه رآني أنام مع عبدالكريم في منام بدأ يتكرر ليلاً، منذ كتبت له أنني رافقت عبدالكريم إلى الحفلة الموسيقية، ومنذ أن وصلته رسالة من معتصم، تقرير. ... عن علاقتي بعبدالكريم.

ذهلت، قلت إن معتصم لا يتقن الكتابة. قال إنه استكتب أحد أصحابه.

إنه الخريف الشاحب الكئيب، ألن يأتي الربيع أبداً؟ هل غادر إلى عالم آخر، عالم أكثر كمالاً؟ يا إلهي.. أي إهانة وأي جرحٍ؟ أن يشك حبيبي فيَّ... في حبي له. يا الهي لعل حبي له صار باهتاً بعد

اللهب والنار الحارقة، لعله بات فاتراً، لعلي في لاشعوري، عتبت عليه لأنه تركني من أجل سواد عيون الكادحين، وخير البشرية. وما علاقتي أنا بالكادحين، نحن أصلاً لا ننتمي إليهم نحن ننتمي إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى.

نحن بورجوازيان صغيران، حسب قاموس عاصي نفسه.

بغتة، بعد شهور ثلاثة من التحقيق والاستجواب والتعذيب. خطر ببالي أنه ضحية تحولت إلى جلاد. إنه مريض ويحتاج إلى علاج، هددته، قلت له:

- ما عدت أطيق إهاناته وشكه.

أخبرته أنني سأهجره، وقد أطلب الطلاق. بكى، انتحب مثل طفل صغير فقد أمه. ضمني إلى صدره وقال إنه لا يستطيع أن يحيا بدوني، قبل يدي عشرات القبلات ودموعه الحارة بللت قميصي. في اليوم التالي طلب أن أصفح عنه. قال إن سنوات السجن أثرت على عقله. قال إننا سنذهب لشم الهواء يوم الجمعة المقبل ما رأيك.. نذهب للصيد؟

ما الذي جعله ينقلب هكذا؟ تهديدي بالانفصال عنه والطلاق؟

قال:

- سنأخذ معتصم معنا، سيتكفل بشي اللحم، والهش والنش.

قلت إنني أبغض هذا الجاسوس، اعترضت على رفقته لنا، قال عاصي إنه مريض، غريب، مختلف.. قال راجياً:

- لا تضعي عقلك الكبير في عقله الصغير.

معتصم

يحلو لي أن أكتب مذكراتي، لو كنت أتقن الكتابة. بعد زواجنا رسمياً (لم يرض رب أسرتي ورب أسرتها إقامة حفل زفاف)، واشترط أبي أن نقيم في منزلنا، أقصد منزل أبي، فوافقنا، واشترط رب أسرتها أن لا ننجب أطفالاً، تكلفنا الموافقة لكننا قررنا رفض هذا الشرط سراً إلى أن يكشفه انتفاخ بطن هيام، لكن حياتي بلا أحداث. ما الذي سأكتبه، لو كتبت مذكراتي؟

يوجد حل وسط، أكتب يومياتي في دفتر مذكرات صغير.

اليوميات لا تحتاج إلى إلمام ممتاز باللغة.

الإثنين: اقترحت على هيام أن نتناول ساندويشات فلافل مع شطة، حتى أشمها وأكيّف أنبسط . البسط عند العراقيين يعني الضرب، وفي لهجتنا يعني الفرح، ويقولون إنني لا أعرف رأسي من قدمي، لا يعرفون أن الحياة مدرسة. العراقي الذي يعيش في غرفة في

الشارع المقابل لشارعنا هو الذي علمني أن كلمة البسط في لهجتهم تعني عكس ما تعنيه في لهجتنا، بل قال لي إن كلمة أعزب تعني أزعر.. على ما أظن. أترى إلى كل هذه المعلومات؟ حتى أبي لا يعرفها، آه تذكرت، كلمة «زقرْتْ» التي تعني قبضاي في لهجتنا، تعني أعزب في اللهجة العراقية. أبي لا يعرف هذه المعلومات تصوري، (قلت لهيام) لو سافر إلى العراق وقال لرجل عراقي إنه يريد أن يبسطه، أي أن أبي يريد مثلاً أن يروي له نكتة كي يبسطه، سيغضب العراقي، وقد يضرب أبي، أبي لن يعرف أن يتدبر أمره إذا سافر إلى العراق بدوني.

الساعة الخامسة مساءً: ذهبنا أنا وهيام لنشم الهواء، ذهبنا إلى المنتزه، قبل ذلك اشترينا تسالي بزر وقضامة وفستق، كي نتسلى في المنتزه (....) أبي ما يزال مضرباً عن الحديث معي، لأنه زعلان من زواجي، وقال إنه لن يسامحني أبداً. أمي قالت إنه سيغير موقفه حين نرزق بالطفل الذي تحمله هيام في بطنها.

أمي تعرف السر، تعرف أن هيام شخصان لا شخص واحد. انها هي هيام وإن سليم أو سلمى في بطنها، لكنها لم تفشِ السر لرب أسرتي أو رب أسرة هيام. قالت:

- سيغضبان.

أنا أعرف لماذا خانت سهام زوجها. أمي كانت تقول لجاراتنا دائماً إن المرأة لا ينبغي أن تتزوج بحاراً أبداً، لأن البحارة يسافرون ويغيبون طويلاً، فتشعر المرأة بالوحشة وببرودة السرير. وقالت إن نصف زوجات البحارة يخن أزواجهن. أنا تخونني ذاكرتي فقط،

لأنني لست بحاراً. صحيح أن عاصي ليس بحاراً، لكنه عمل مثل بحار، غاب عنها طويلاً، والجنس حاجة حيوانية، مثل حاجة الإنسان الحيوانية الغرائزية إلى الطعام والشراب والهواء، القردة والكلاب والذئاب والقطط.. كل الحيوانات تحتاج إلى الجنس والطعام والجنس. القطط تفضله في شهر شباط بالتحديد.

قلت لهيام إن أبي الذي يتهمني بالجهل لا يعرف أن القطط تفضل عملٍ ذلك الشيء الحيواني الغريزي في شبا ط، كانت هيام تسألني دائما:

- كيف تسميني « ملاكي » وتنام معي، الملائكة لا يرتكبون هذا الفعل الحيواني؟

فأقول لها إنني الحيوان وهي الملاك. وهذا ما يفسر شعوري بالنشوة حين ننام، وعدم شعورها هي، هي لا تشعر بتلك الرعشة الكهربائية لأنها ملاك، أما أنا فحيوان، ألا يقول الشاعر إن الإنسان حيوان ناطق؟ إذن أنا حيوان، ولكن ناطق، أما هي فملاك، والا لماذا لا تنبسط حين ننام معاً؟

أما سهام فليست ملاكاً مثل هيام، سهام حيوان ناطق مثلي، وهي مثلنا جميعاً، نحن الحيوانات الناطقة، تحتاج إلى الجنس، حاجتها للطعام والشراب والهواء. والإنسان لا يستطيع أن يمتنع عن الطعام والشراب أكثر من أسبوع، أما الهواء فيحتاجه كل دقيقة، كذلك الجنس، لكن من يتزوج مناضلاً فارساً مثل عاصي عليه أن يحتمل الحرمان الجنسي، عليه بالصيام.

لا يستطيع المرء أن يجمع بين النار والماء، أو يكسب الدنيا

والآخرة، عليه أن يختار. هي اختارت الزواج من مناضل، كان عليها أن تدفع الثمن؛ لأنه لم يغشها، لم يقل لها إنه ليس مناضلاً. كانت تعرف أنه مناضل قبل أن تتزوجه، وهي تعرف أن المناضل مكانه المعتقل. القاعدة في حياة المناضل هي المعتقل، والحرية استثناء. لكن ربما لم تعلم هذه القاعدة، فالناس ليسوا جميعاً أذكياء ويعرفون ما أعرفه.

◆

أبي يقول إن القانون لا يحمي المغفلين، وسهام مغفلة، لأنها تزوجت مناضلاً ولم تستغن عن الجنس. إذن، سهام خالفت القانون، قانون الطبيعة والناس والدين؛ لهذا ينبغي أن تلقى الجزاء المناسب للزنى.. القتل.

حاستي السادسة لا تخطئ أبداً، وحاستي السادسة تقول إن سهام استغلت غياب عاصي فأقامت علاقة زنى مع عبدالكريم، غاب القط إلعب يا فأر.

الصوت الذي تسمعه هيام، صوت كائن شريف، لعله ملاك مثلها، طالبها بأن أقوم أنا بقتل سهام صوت الروح الخفية الطاهرة قال لهيام:

- لقد نذرت الاقدار معتصم للاقتصاص من خطيئة سهام.

وهيام نقلت لي الرسالة، وهيام شبه ملاك، ولها اتصالات مع الملائكة، وأنا قلت سأنفذ الأوامر السماوية، وهي إشارات علي أن أخطط بعناية لتنفيذ أمر اعدام سهام، كي لا يكشف رجال الأمن

أمري، ويزجوني في السجن.

لذلك، لم أنطق بحرف واحد حين حققوا معي، عاصي قال أكثر من مرة إنه يحن لحياة السجن، بعد أن خرج ووجد العالم منهاراً: زوجته خانته لأنه غاب، رفاقه قاطعوه لأنه استنكر، الجيران يرمقونه بنظرات سوداء مريرة، لأنهم يعرفون أنه يضرب سهام، ولأنهم يعرفون عن العلاقة بين سهام وعبدالكريم. وهو قال لي بعد خروجه من المعتقل بشهر، انه مات من الداخل، وان ما رآه ليس عاصي وإنما شبح عاصي أو طيفه، لأن عاصي مات. فإذا مات عاصي وزعم أنه الذي قتل سهام، فلماذا أتطوع وأعترف أنني أنا الذي أطلقت النار عليها؟

◆

السبت: ذهبنا إلى دار للسينما وحضرنا فيلماً، ثم اكتشفت أن كلاً منا رأى فيلماً مختلفاً، مع أننا كنا نجلس متجاورين، ونشاهد ذات الشاشة، ونأكل من كيس البشار ذاته. فهيام قالت إن بطل الفيلم مجنون متزوج من امرأة عاقلة، أما الفيلم الذي رأيته أنا فيتحدث عن مجنونة متزوجة من عاقل. لقد فقدت عقلها بعد الزواج. الناس يفقدون أشياء كثيرة، يفقدون محفظة، يفقدون وطناً، لكن ما أصعب فقدان العقل والشرف، وسهام فقدت شرفها عن سابق تصور وتصميم.

◆

الثلاثاء: شاهدنا مسلسل الجريء والجميلة مع أهلي.

وقال أبي إن هذا المسلسل متقدم علينا في الزمن على التلفزيون الاسرائيلي. وأنا فكرت أن سهام ارتكبت خطأً فاحشاً. فلو سافرت هي وعبدالكريم إلى أمريكا وناما معاً، لما استحقت العقاب. أبي يقول إن أمريكا تعيش عصراً غير عصرنا لو أقامت علاقة مع عبدالكريم في أمريكا، لكان الأمر مختلفاً. فهي تنام مع رجل في عصر آخر، في زمن مختلف، في حياة ثانية، في المستقبل. مما يعني أنها لا تعيش في ذات الزمن الذي يعيش فيه عاصي. إذن، هي ليست زوجته، بل لا تعرفه حتى.. لماذا لا تسافر هذه العاهرة التي خانت أحب الناس إلى قلبي.. إلى أمريكا، وتنام مع عبدالكريم العيسم في ذلك العصر، أي في المستقبل؟ قلت لهيام إن عاصي أحب إنسان إلى قلبي، فحردت وقاطعتني، وقالت إن المنطق يقول انها هي أحب الناس إلى قلبي لا عاصي. وحاولت أن اشرح لها الفرق بين حبي لعاصي وحبي لها، فتطورت أكثر، وبدلاً من أن أكحلها عميتها، كما يقول المثل العامي عندنا. ينبغي أن أسأل صديقي العراقي المهاجر، إذا كان العراقيون يعرفون هذا المثل. قلت لصديقي العراقي الذي يقيم في حجرة واحدة: إن لبنانياً كان يقيم في هذه الحجرة أيام الحرب الأهلية اللبنانية، قلت: يبدو أن هذه الحجرة منذورة للهاربين من الحروب. وسألني العراقي عن إشاعة سمعها تقول إنني قتلت امرأة وألصقت التهمة في صديقي الحميم. فنفيت ذلك بحدة، وقلت إن صديقي هو الذي ألصق التهمة بنفسه، لا أنا. أنا احترمت رغبته في إلصاق التهمة بنفسه فقط . كنت احترمه، وأحترم رغباته، بل.. كانت رغباته أوامر بالنسبة لي.

عاصي

الميت الحر، هو الحر الوحيد بين الأحياء؛ لأنه لا يكترث بما يقوله الناس عنه، ولا يلتفت إلى محاولة إثبات رجولته أو وطنيته أو حبه للصراحة. الميت لا يحتاج إلى إثبات أي شيء، لأي إنسان، الميت غير ملزم بتبرئة نفسه من تهمة كاذبة.

طلبت من إدارة السجن منع الزيارات لي. مدير السجن رفع حاجبيه دهشة، أكدت له أنني لا أرغب في أن يزورني أحد، لا قريب ولا صديق ولا حبيب، وطلبت استثناء معتصم فقط من هذا الطلب.

حين يزورني معتصم أشعر أنني محظوظ، أقول لنفسي:

- تصور لو كنت مثله، كان من الممكن أن تكون مثله، ما الذي يمنع ذلك؟ لكنك محظوظ.

ترى هل أنا محظوظ حقاً؟ ربما لو كنت مثله لكان حظي

أفضل. إنه يأكل ويشرب وينام ولا يحلم أحلاماً رومانسية لعل حظه أفضل من حظي.

الناس

قيل إن عاصي أضرب عن الكلام في السجن، بعد أن حكم عليه بالمؤبد. قيل إن سجيناً سأله عن اسمه (قبل أن ينقل إلى زنزانة انفرادية) رمقه بنظرة متعجرفة باردة وقال:

- هل سألتك عن اسمك.. حتى تسأل عن اسمي.. اسمي «ميت بن نعسان».. هل يعجبك اسمي؟ إنني شقيق «حي بن يقظان»؟

واندلع العراك بينهما، وقيل إن المجرم الضخم أدمى وجه عاصي. لكن عاصي ظل يسقط على الأرض، ثم يتناهض بتثاقل ويهجم على المجرم العملاق، حتى بلغ لحظة عجز فيها عن تحريك ذراعيه انهاكاً، فلجأ إلى البصق، لكن المجرم العملاق ابتعد عنه، فتبعه عاصي زاحفاً، وراح يبصق عليه، لكن البصقات لم تصل إلى وجه المجرم العملاق ، حيث سدد عاصي ، وإنما نجحت أحياناً في السقوط على نعليه.

وتركه العملاق بعد أن ظن بعقله الظنون.

كان عاصي يضرب عن الطعام أياماً طويلة، لا لتحقيق مطلب معين من إدارة السجن، ولكن لمعاقبة نفسه، عاصي يبغض نفسه، هذا ما أدركه مدير السجن الجديد.

وبات هم مدير السجن الجديد المحافظة على حياة عاصي.. عاشق الموت.

◆

أخبار العالم الخارجي تصل عاصي، لقد انهار كل شيء وانقلب معظم الرفاق إلى رجال أعمال أثرياء أو مستوزرين.

انها صرعة العصر الجديد: التهافت على زخرف الدنيا المبتذل ومتاعها التافه.

◆

قبل أن ينقلوه إلى زنزانة انفرادية كان ممسكاً في كلامه وإشاراته، تهافت المسجونون عليه يستجوبونه: ماذا فعل؟ لماذا زج في السجن؟ هل سرق أم قتل؟ أم اغتصب أم احتال؟

كان يرقد عى فراشه، يشبك يديه تحت رأسه ويتجاهل كل هذه الأسئلة، وقبل أن يشيح بوجهه كان يرمقهم جميعاً بنظرته المتعجرفة المتعالية التي تقول إنها تحتقرهم.

◆

قال له سجين استفزته نظراته المتعجرفة الصامتة:

- هل تظن نفسك السجان لا السجين؟

أعرض عاصي بوجهه، وانقلب ليواجه الجدار، ويولي ظهره للسجين الذي سأل. ثارت ثائرة السجين، فركله بقدمه على خاصرته، لكن عاصي لم يندفع إلى الرد كعادته، زم شفتيه ألماً، ولم يتحرك، ركله السجين مرة أخرى وقال:

- ما دمت جباناً.. لماذا تنظر إلينا كحشرات؟

ضم عاصي ركبتيه إلى بطنه ولم يحرك ساكناً، فركله السجين مرة ثالثة وقال إنه سأله سؤالاً، وإن اللياقة تقتضي جواباً.

التفت عاصي نحو السجين، سكب في عينيه نظرات نارية، فانقلب الرجل على عقبيه، بعد ان ظلا يتبادلان نظرات التحدي إلى أن انكسرت نظرات السجين، ولم تنكسر نظرات عاصي الراسخة المتينة.

سقط السجين من عيون السجناء، ولم يسقط عاصي.

سهام - قبل مقتلها طبعاً -

الموسيقى عالم الكمال، وعبدالكريم يرتقي إلى مرتبة ملاك، يحلق في فضاء باذخ، لكن عضلاته وحركاته وقطرات عرقه المتصبب توحي بأنه وحش. الجانب الآخر من وجهه، يتحول إلى ملاك طاغية حين يذهب بعيداً في عالم الموسيقى، حين يعزف ويتوغل ويتوغل، وأنا أراقب قطرات عرقه، خصلات شعره المجنونة، عضلات ظهره ومنكبيه وذراعيه تنبسط وتنقبض مثل فعل الحب.

معتصم

بوسع المرء أن يحلم أحلام يقظة، أحلام اليقظة تميز الإنسان عن الوحش. إنني الآن في باريس، بدون هيام، انني أجلس في مقهى، قرب واجهة زجاجية عريضة، وأتفرج.

المرأة شقراء، عيناها زرقاوان. إنها تغازلني، لكنني أقاوم الإغواء لأنني أحب هيام.

أقف تحت برج « إيفل » وبرج « بيزا » إنهما متجاوران في باريس هاجمني الضجر في فندقي القائمٍ في «شانزاليزيه» لجأت إلى النوم، رحت أبتلع أقراص المنوم ابتلاعا، ذهبت إلى باريس زرت برج فيزا أو بيزا، وبرج إيفل ثم نمت.

ورأيت في منامي عاصي الذي أعلن موته المعنوي، سألته ماذا يعني الموت المعنوي؟

قال: أن تفقد الرغبة في الحياة.

كان يحتل شقة فخمة مفروشة قرب شارع الحمراء في بيروت قبل الحرب. مومس تطرق بابه، كاملة الأوصاف، يعتذر بلباقة، يقول إنه لا يرغب. تقول:

– أعطني فرصة أثير رغبتك.

فيصارحها:

أنا ميت.. لكن أصحابي نسوا دفني.

يمتقع وجهها وتهرب.

إنه لا يزهد في الجنس فقط. إنه زاهد في الحياة. قال أبي إن الكآبة تعني فقدان الرغبة في الحياة، في القيام بأي شيء، وقال إنه يعرف صديقاً مصاباً بالكآبة، وإن هذا الصديق أشبه ما يكون بتنابلة السلطان. إنه يرقد على كنبة ولا يرغب في القيام بأي شيء، لا يرغب في شم الهواء، ولا الجنس، ورؤية التلفزيون، ولا قراءة جريدة، ولا حضور حفل استقبال، انه لا يرغب بأي شيء، لا يرغب في الحياة.

هيام

بزغت الريا ح، فأشرق الليل، لأن الرياح قادمة من الشمس، وأسدل الخريف ستائره.

معتصم زار عاصي في السجن، وعاد مكتئباً، قال إن عاصي يشعر بالضجر، إبان انتظاره، للموت الحقيقي للإعدام، فموته الآن معنوي رمزي، وسألت معتصم عن معنى رمزي، فقال إن رمزي اسم رجل أو عائلة، وإنه سمع عن راقصة اسمها لا أدري.. كذا رمزي.

عاصي وسهام

كتبت منذ البداية عن دخولي عالم الموسيقى، عن تحليقي في فضاءات جديدة وعن دور عبدالكريم أستاذاً وأخاً وصديقاً.

وأنا لم أعترض، كتبت أشجعك، أهنئك على اكتشافك لعالم فاتن، قلت إن العوالم الفاتنة حولنا كثيرة، لكننا لا نغامر لاقتحامها واكتشافها؛ لأننا نعاني من «حالة تنبلة» أقصد كسل فكري وفقدان الرغبة في الحياة، أو قضاء مشوار الحياة كواجب لا بأس به فنعبر الحياة بهمة فاترة.

لا أكتمك إن فقرات رسائلك التي لا تتحدث عن الموسيقى بل عن الموسيقار عبدالكريم كانت تزعجني. ومرة ذهلت حين قال لي معتقل كنا نشك في صموده وإخلاصه إنه يهنئني على اهتمام سهام بالموسيقى، فالموسيقى سوف تبدد وحدتها. لكن المشكلة تكمن في أن بعض الناس يخلطون بين الموسيقى والموسيقار.

من نظرته المبلولة السمجة المبتسمة ابتسامة صفراء ومن لهجته المائعة المترددة بين الجد والهزل أدركت بغتة ولأول مرة أن شخصاً ما يغمز من قناة سهام وعبدالكريم، قبضت على ياقة قميصه ودفعته دفعة قوية أسقطته أرضاً.. زعقت في وجهه:

-ماذا تعني أيها العميل المزدوج؟

اعتذر لي، بدلاً من أعتذر له، نهض ونفض بنطاله، وحين تحلق بعض المعتقلين حولنا متسائلين في دهشة عما حصل، قال بلهجة لئيمة قارصة:

- لا مجرد سوء تفاهم.. أنا مشغول عنه، قلت له إن تلميذة بتهوفن تعلمت الموسيقى على يده من أجل يده لا من أجل الموسيقى، وما كنت أعرف أن عاصي متعصب لسمعة بتهوفن إلى هذا الحد.

ابن الـ.. التزمت الصمت. ارتبكت، ثم بدأت الرائحة تصل إلى المعتقل ثم رسالة معتصم، ثم المنامات المزعجة حيث أراهما معاً كل ليلة.

◆

أعترف أنني ساذجة.. كل صديقاتي يقلن إنهن لا يطالبنني بالتوقف عن دراسة الموسيقى في منزل عبدالكريم، ولا حتى في مرافقته إلى أمسيات موسيقية لكنهن يطالبنني بالقيام بكل ذلك سراً لا جهراً. المدينة صغيرة، والناس يعرفون بعضهم، وسكان هذا الجبل بالذات يحترفون النميمة، لأن كل بقّال في الجبل جاسوس ويعرف

من راح عند من ومن أتى من عند من، ضربت على صدري، دارت الأرض تحت قدمي، قلت بفجيعة:

- حياة سرية، علاقة سرية؟ لماذا؟ هل قمت بما يخدش الحياء العام؟ هل تجاوزت خطاً أحمر من المحظورات والمحرمات؟ إنني أكتب لعاصي بالتفصيل عما أفعل. قالت صديقتي إن الناس لن يتفهموا، ومادمت قادرة على إقامة علاقة مع عبدالكريم سراً، فلماذا أعرض سمعتي للخطر، وأصرّ على علاقة واضحة للعيان.

هتفت مغضبة:

علاقة موسيقية، علاقتي مع عبدالكريم علاقة موسيقية تفتح لي باباً لدخول عالم سام نبيل راق أمثالكن لا يعرفنه، ولا يرغبن في أن يعرفنه، أمثالكن منهمكات بتفاصيل الغذاء الجسدي ، والموسيقى غذاء الروح، العالم الكامل الذي يطالب عاصي به.

هزت صاحبتي منكبها وقالت إنها تشكرني على بهدلتي لها، وإنها تستحق هذه الإهانة، لأنها جاءت إلي وقالت في وجهي ما تقوله بعض صديقاتي في ظهري، نحن لسنا في السويد يا سهام .

وانطلقت مبتعدة والدموع في عينيها، استفزني كلامها، قررت تحدي هذا المجتمع المتخلف، ما يهمني هو تفهم عاصي، وعاصي متفهم لأنه تخطى منذ شبابه المفاهيم التقليدية المحافظة البالية.

ثم جاءت رسالته المباغتة، يطالبني بمواصلة دروس الموسيقى ولكن مع أستاذة لا مع أستاذ، وشرح شرحاً مسهباً عن تخلف مجتمعنا. لكن رسالته تلك دفعتني نحو المزيد من التحدي: لماذا

نحسب حساب ما سيقوله هذا أو تلك، إذا كنا مؤمنين واثقين بأنفسنا ومواقفنا. هذا فصام: تطلب إخراج مجتمعنا من التخلف، وتطالب في حالة زوجتك مراعاة هذا التخلف. لا.. هل استشرتني حين انضممت إلى العمل السياسي؟ هل لبيت طلبي حين ناشدتك أن تتركه؟ لا، ركبت رأسك. لماذا لا أركب أنا رأسي أيضاً؟ ألم تقل لي حين قررنا أن تخطبني إنك معجب بجرأتي؟ ألم تقل لي إنني متميزة عن نساء البلد، وإنني متقدمة عليهن؟ ألم تقل لي إنك معجب «بنمردتي» ألم تناديني بين الحين والآخر يا «نمرودتي المثيرة» ألم تكن معجباً بتمردي؟ ألم تعتبر موقفي المتمرد العاصي حين تقدم ابن عمي لطلب يدي، ظاهرة تستحق الاحترام؟ ألم تقل ذلك بعد أن علمت أن والدي وعمي هدداني بالقتل إذا لم أوافق على الزواج من ابن عمي الثري غير المتعلم؟ ألم تزه بي وتفتخر لأنني لم أرضخ لضغوط أركان العائلة والناس؟ لماذا تطالبني بالخضوع الآن؟ ألم تقل لي عشرات المرات إن الحلول الوسط التوفيقية تلفيقة جبانة؟ أليس اقتراحك هذا تغيير المدرس واستبداله بمدرسة حلاً وسطاً تلفيقياً؟ ألا يشبه من حيث المبدأ اقتراح صديقاتي إقامة علاقة موسيقية سرية مع عبدالكريم؟

هل أثر عليك موقف متخلف معاق مثل معتصم؟ يا إلهي! يؤثر عليك موقف رجل أبله يقول إن الاستعمار يقف وراء علاقتي الموسيقية مع عبدالكريم لأن الاستعمار يستهدف سمعتك وتحطيمها؟ أيؤثر على مواقفك رجل يحمل عقل طفل في الصباح، وعقل مراهق طائش عند الظهيرة، ثم يهدأ ويوحي لك بأنه رجل عاقل

متزن عند هبوط المساء؟ أنا لا أدري ما اسم هـذه الظـاهرة الغريبـة، لكنـي أملـك ذكـاء كافيـاً، لأدرك أن هـذا الشـخص غــير ســوي ومريض. هل نترك مصير حياتنا ونمطها بين يدي شخص غير ســوي متخلف غريب مثل هذا؟

معتصم

منذ صغري أدرك الناس أنني مختلف عنهم، وأنا، حين كبرت، أدركت سبب اختلافي. وسبب اختلافي.. أنني صاحب رسالة، منذور من قبل القدر لتنفيذها. لقد نذرني القدر لحماية المخلص المنتظر الذي يتخذ هيئة عاصي. منذ أيام اللعب بالحارة، وأنا أكسر رأس من يعتدي عليه، وإلا كيف أفسر كل هذه القوة البدنية الجبارة التي سخرتها القوى الخفية لي؟ المخلص المنتظر في خطر والخصم (من هو الخصم؟ لا أعرف!) سوف يستخدم كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة لكسر شوكته، وهنا يأتي دوري. وهذا ما يفسر انتقالي الحر التلقائي الذي يبدو غير منظم (مع أنه مدبر بإحكام من قبل قوى خارقة خفية).. انتقالي الحر التلقائي من سن الرشد إلى المراهقة إلى الطفولة، وبالعكس؛ لأنني متأهب دائماً، مستنفر دائماً للقيام برسالتي، حماية المخلص المنتظر الذي يتجسد في هيئة عاصي

وانتحالها أو تقمصها. ولكن حين يغيب الخطر عليَّ أن أرتاح، ألتقط أنفاسي، أرخي أعصابي، عندئذ أتحول إلى طفل دون أن أعي ذلك. تماماً مثلما تنتقل المدينة أحياناً من الشتاء إلى الصيف دون المرور الطبيعي بالربيع والخريف!

هيام تقول إننا نختلف عن بقية البشر. الناس مثل قطارات تمشي على سكة حديدية إلى أمام في خط مستقيم، تتقدم دائماً نحو الشيخوخة، لا تستطيع أن تتقهقر أو أن تفر أو أن تتراجع. فمسار حياتها أفقي إلى أمام ومستقيم وباتجاه واحد من المهد إلى اللحد.

أما نحن، فلسنا قطارين، نحن دراجة هوائية أو نارية تسير في شارع ذي اتجاهين. بوسعنا أن نتقدم نحو سن الرشد، وبوسعنا أن نتقهقر، مثل سيارة، نضغط على مبدل الغيارات (الجير) فإذا بنا نتراجع إلى وراء، إلى الطفولة، بل بوسعنا، إذا أردنا أن لا نتراجع إلى وراء حيث الطفولة البريئة، بوسعنا ان نلتف في منتصف الطريق كما تلف السيارة حول « دوار » ثم نعود إلى الوراء من حيث انطلقنا، ولكننا لا نتقهقر، وإنما نتقدم إلى وراء، أي أن مقدمة السيارة هي التي تتقدم إلى وراء، حيث انطلقنا، إلى الطفولة الملائكية الصافية، فلا نتراجع وصندوق السيارة الخلفي يقودنا إلى وراء، بل نتقدم إلى وراء وواجهة السيارة تواجه الوراء مما يعني أننا أكثر إنسانين في العالم نتمتع بحرية حركة استثنائية غير مألوفة وغير طبيعية، لهذا لا يفهمنا الناس؛ لأننا الاستثناء الفذ.

وحين سألتها إذا كنا نتقدم إلى أمام (أي إلى الشيخوخة والمستقبل) ونرجع إلى وراء أي إلى (الطفولة والماضي) بإرادتنا

واختيارنا، أم رغم أنفنا، قالت بكل ثقة، وكأنها تعرف أجوبة كل أسئلة العالم إن المسألة ليست مسألة إرادة أو اختيار حر تماماً، المسألة أشبه ما تكون بمواعيد اقلاع الطائرات، فبوسع الطائرة أن تنطلق من الشرق المتوسط إلى الجنوب المتأخر (الماضي) متى شاءت، وبوسعها أن تحلق نحو الشمال (سن الرشد) في أي لحظة. لكن هناك نظام خفي وقوانين مستترة وجداول مدسوسة ومواعيد عشوائية منطقية دقيقة. فالمسافر لا يستطيع أن يذهب إلى المطار متى يشاء، وأن يتوقع أن يجد طائرة جاهزة بانتظاره للإقلاع من هنا أي من الحاضر من الشرق الأوسط إلى الشمال أو إلى الجنوب. مثلاً، المطار عندنا كان في « ماركا » وانتقل إلى الجنوب، ولهذه النقلة مغزى لا يقف عليه إلا العباقرة، ثمة أنظمة وقوانين وجداول وأوقات محددة ومواعيد معينة للإقلاع من الحاضر إلى المستقبل (أي أمريكا مثلاً) ومواعيد معينة للإقلاع من الشرق المتوسط (أي الحاضر) إلى الماضي أي الجنوب. وهناك مسؤولون كبار يحددون مواعيد الإقلاع إلى المستقبل أو إلى الماضي، لذلك يذهب المسافر إلى الخطوط الجوية ويحجز مسبقاً ويسأل عن موعد الإقلاع. إذن المسافر مثلنا، لا يتحكم بموعد الإقلاع نحو الشمال أو الجنوب، وإنما يلتزم بمواعيد وضعها أشخاص كبار مهمون غير معروفين.

هذا ما لا يفهمه الناس، فيتهموننا بالتخلف بدلاً من الاختلاف؛ لأنهم يغارون منا، يحسدوننا، لأنهم عاجزون عن الرجوع إلى الوراء، فمسارهم ذو اتجاه واحد، أما مسارنا فله اتجاهان: واحد إلى المستقبل، وآخر إلى الماضي، لهذا نحن معجزة لكن لا كرامة لخارق في وطنه.

سهام

جنون معتصم يتفاقم، كان مختلفاً منذ أيام اللعب بالحارة، لكنه أصبح مهووسا خطرا، إنه يلاحقني حيثما يممت وجهي مثل ظلي، زجرته ونهرته في الشارع.

شكوته لأبيه، الرجل الشيخ ضرب جبهته بكفه واغرورقت عيناه، قال:

- عجزت عن منعه من الزواج؟ فهل تتوقعين أن أنجح في إقناعه بعدم ملاحقتك؟

تنهد الأب ونكس رأسه وهو يقول:

- تزوج رغم أنفنا، وضعنا تحت أمر واقع مرير، فقلنا لا حول ولا قوة.. أشرنا عليهما بعدم الانجاب، فتمردا، ترى كيف سيكون المولود الجديد: وحشا، حيوانا، نباتا، إنسانا، قديسا؟

◆

لكنني لا أخاف معتصم، معتصم الذي سخرت له الطبيعة هذه القوة البدنية الجبارة، تنتابه نوبات رعب من الحياة أحياناً، فلا يخرج إلى الشارع إلا بعد أن يضع خوذة على رأسه، و « عجل » سباحة حول خاصرته، كأنه يخاف من طوفان مباغت، سقوط حجر من السماء على رأسه، مرة قال لي أن أشتري له قارباً مطاطياً، قال إن هيام ترى المستقبل وتقول إن طوفاناً من الرمال والدماء سوف يداهم العالم، وإن سفينة نو ح لن تكون حاضرة، لن نرى سوى سفينة الصحراء بانتظار ربانها.

أدركت أنه يعيش نوبة ذعر، عطفت عليه، أحسست بأنني قادرة على الصفح عن هذا المسكين حين طمأنته، قال لي إنني أمه وإنه يريد أن يحمي رأسه في صدري.

سألت طبيبا صديقاً عن حالة معتصم وهيام وكرهما وفرهما في العمر، فهما ناضجان حيناً، مراهقان طائشان أحياناً، طفلان ضائعان في الغالب الأعم.

قال إنه لم يسمع عن مرض كهذا، لكن معظم الأمراض النفسية والعقلية غير مستقرة؛ فأنت تجلسين مع شخص مريض وهو في حالة توازن فتظنينه عاقلاً راشداً حكيماً، ثم يصاب بنوبة فيتحول إلى إنسان آخر، ويفقد توازنه، ترى ما الذي يسبب هذه الحالات الشاذة؟ خلل كيماوي أم جينات غير طبيعية؟ مرة حاولت أن أتقرب من معتصم وكان في حالة نفسية ممتازة، فسألته عن صحته، ودعوته لتناول صحن من « التبولة ». قال إن الجينات الغلط تدب في شرايينه، وإنه يشعر بدبيبها، إنها تدغدغه، ثم رمقني بنظرة قاتمة

وقال إن جراثيم الحرام تدب في شراييني وإن السماء ستعاقبني، قال إنني ألعب دور زوجة بحار، مع أن عاصي مناضل وليس بحارا.

وحين قلت له إنه لم يكن يبغضني أيام اللعب في الحارة، قال:

- أيامها.. لم تخطفي عاصي مني، كان عاصي لي أنا، ثم خطفته أنت، وستدفعين الثمن.

صعقت، ابتعدت عنه واجمة ذاهلة: ماذا تعني عبارته الأخيرة؟ حاولت تأويلها وتفسيرها، فوجدت أنها قد تعني عدة معان، ابتداء من أنها مجرد عبارة حمقاء قالها شخص غير طبيعي، مروراً بعشرات المعاني المحتملة الأخرى. وتذكرت أنه كان يلعب دائماً دور الملاك الحارس لعاصي، استفزاز عاصي يعني استفزاز معتصم، والاعتداء على عاصي جريمة يعاقب عليها المعتدي من قبل معتصم. مرة ضرب أولاد حارة أخرى عاصي، معتصم لم يكن معه، حين رآه معتصم، أصر على أن يعرف من الذي اعتدى عليه، في البداية رفض عاصي الاعتراف، ثم ألح معتصم، فأخبر ه عاصي.

بأم عيني رأيته يضرب الأولاد الثلاثة ويركلهم مثل عملاق جبار يضرب أقزاماً، مع أن حجمه ليس أضخم من أحجامهم. لأول مرة خفت من معتصم، ساورني إحساس غامض بأنه ليس إنساناً عادياً، إنه ذئب جبار متوحش يتقمص شكل إنسان.

هذا الرجل، معتصم، إما أنه متخلف أوأنه يلعب دور الأبله الذي لا يفهم ما يجري من حوله، وبالتالي لا يلام ولا يعاتب ويعامل معاملة خاصة استثنائية.

أمس، مثلاً، تصرف بطريقة غريبة توحي بأنه يمثل هذا الدور

ويدركه ويستمتع بـ « امتيازاته ».

كنت وعبدالكريم نعزف على البيانو، رنّ جرس البا ب، فتحت أم عبدالكريم الباب، فإذا معتصم واقف بالباب. قال لأم عبدالكريم بتهذيب مفرط إنه اشتاق لعبدالكريم، وإنه يرغب في أن يحتسي معه فنجان قهوة إذا لم يكن مشغولاً. ارتبكت أم عبدالكريم، فهي تعلم أن معتصم غريب الأطوار وأن عبدالكريم لا يطيق أن يراه.

قالت بلهجة اعتذار لبقة إن عبدالكريم يدرس احدى طالباته العزف على البيانو الآن.

إبتسمت ثم أضافت:

- تعال في وقت آخر إن شئت.

لكن معتصم دفعها دفعة هينة ودخل وهو يقول إن بيت عبدالكريم مثل بيته، وإن تلميذة الموسيقى ليست غريبة.. سهام إنها من بنات الحارة وهي مثل أخته، ولن تمانع.

واندفع نحو الصالة مقتفياً أثر صوت البيانو، التفت عبدالكريم وسهام ورمقاه بنظرات مستطلعة، أطلق ضحكة مجلجلة وقال إنه سمع سهام تقول إن الموسيقى هي العالم الكامل الوحيد، وإنه يريد أن يرى هذا العالم الكامل، وأن يعيش فيه.

زعق عبدالكريم في وجهه:

- أخرج من هنا، هذا درس، نحن لا نلعب، اخرج يا مجنون.

ابتسم معتصم ابتسامة عريضة وقال وكأنه يرغب في إلقاء خطاب يدهش الاثنين ليستمتع برؤية آثار كلماته على تعابير

وجهيهما وفي نظرات عيونهما، قال بلهجة من يلقي محاضرة: إنه مختلف، وليس متخلفاً ولا مجنوناً. ولكن لنفترض أنني مجنون، قال: هل يعامل مثقفان مرهفان مجنوناً بهذه الطريقة الفظة، كأنه كلب أو قطة، كأنه ليس إنساناً له مشاعر وأحاسيس وكبرياء وكرامة؟

وإذا عاملني أمثالكما من الحساسين والمرهفين المتعلمين المثقفين بهذه الطريقة (ونحن أبناء حارة واحدة وجيران منذ الصغر) فكيف يعاملني الغريب الذي يرتعب ما أن يراني أتحدث بطريقة غريبة، أو أمشي بطريقة غير مألوفة، أنا أستحق عطفكما لا عدوانيتكما.

سكت الجميع لحظة ذهول، فدنا معتصم من مصباح جانبي فاخر، بكى وضحك معاً، أو أنه بكى بكاء يوحي لشخص ما أنه بكاء فرح، ويوحي لشخص آخر أنه بكاء حزن.

رفع المصباح بيده الجبارة وقال:

- المجانين يهدمون بينما أنتم تبنون.

وقذف المصباح الجانبي المصنوع من عاج دقيق على الأرض بكل قوته، فتناثر إلى شظايا وأشلاء مبعثرة.

ثم قال معتصم وسط ذهول الأم والابن وسهام:

- والآن، عن إذنكم، أرجو أن لا أكون قد أزعجتكم، لا.. لا.. أصر على الذهاب. لا تلحوا عليَّ بالبقاء، كلكم لطف، كلكم ذوق، ولكنني مرتبط بموعد، شكراً، شكراً جزيلاً.

وانسحب بهدوء.

◆

قلت لعبدالكريم إن معظم أبناء جيلنا غادروا هذا الجبل العتيق إلى الضواحي الغربية الجديدة؛ حيث لا يوجد نظام حارات وجيران يعرفون كل شاردة وواردة عن الآخرين، ولا بقالون يعرفون كل أخبار الحارات. قلت إن معظم أبناء جيلنا تركوا الجبل الهرم، ولم يبق إلا العجائز والشيوخ وبعض الذين تحسنت أحوالهم المالية، فانتقلوا من الجزء الشرقي للعاصمة إلى الجزء الغربي، وبالتحديد، إلى هذا الجبل. قالت في هذا الشارع كان يسكن « م.ع.ع » باشا، وهو من أكابر القوم، و « س.ر » باشا « س.ن » باشا وهما رئيسا وزراء سابقان. و « ع.ق.ج » باشا قائد الجيش أيام زمان. أنظر الآن من حل محلهم: فلان تاجر الخضرة وعائلته، علان الذي انتقل من الريف إلى الخليج ثم عاد بعد سبع سنوات لينتقل من قريته في الريف إلى هذا الجبل. هذا الجبل بدأ يفقد ملامحه القديمة العريقة، المنطقة الشرقية بدأت تزحف عليه. ولم يبق من الجيل الجديد من أبناء هذه المنطقة من الجبل سوى تسعة أشخاص، مقابل عشرين شخصا آخرين انتقلوا إلى الضواحي الجديدة الغربية.

إبتسم عبدالكريم وقال:

- كل هذا الانفعال، والتمييز الطبقي رد فعل على تصرف رجل غريب الأطوار؟

قال إنه لن يترك الجبل أبداً، فهو جزء لا يتجزأ منه، لكنه سيلقن معتصم هذا درساً لن ينساه. انتفضت سهام وامتقع وجهها قالت برجاء:

- لا تضع عقلك في عقله.. أرجوك، إنه مجنون يمتلك قوة

حيوان شرس.

◆

بعد أيام دفع عبدالكريم لثلاثة شباب يعملون عمالاً في مصنع والده الذي يديره شقيقه، اختار أضخم ثلاثة عمال، ودلهم على بيت معتصم، ووصف شكله لهم.

انتظروه حين عاد إلى الحارة مع المساء، عرفوه، اعترضوا طريقه، واندلعت معركة ضارية شرسة، استخدم أحد العمال فيها قضيباً حديدياً. كل من رأى تلك المعركة صدفة أجمع على أنها معركة بين ذئاب لا بشر؛ إذ بلغت الوحشية بالمتعاركين حد عض لحوم بعضهم بعضاً، وكأنهم من أكلة لحوم البشر، وحين نزل السكان متأخرين ليتدخلوا كان معتصم قد كومهم جميعاً فوق بعضهم بعضاً، وراح يركلهم بقدمه على رؤوسهم وهو يصرخ:

- مَنْ أرسلكم؟ مَنْ بعثكم؟

اعترف أحدهم، قال:

- الأستاذ عبدالكريم.

تركهم معتصم يلعقون جراحهم، وسعى وهو مثخن بالجراح إلى بيت عبدالكريم. كل أهل الحارة اعتقدوا أن معتصم سيمزق عبدالكريم إرباً. لكنه رن جرس الباب، ولما أطل عبدالكريم مذهولاً اكتفى معتصم بكلمة واحدة، قال:

- سامحك الله يا عبدالكريم.. سامحك الله.

حل الذهول بالجميع، فارتج عليهم، ووقفوا كأن أقفاص

عقولهم انفتحت، فطارت عقولهم، واختلط عليهم الأمر. ولما سُئل معتصم عن موقفه من عبدالكريم العيسم بعد المعركة، قال بكبرياء مغالية:

- معتصم لا يضرب الأقزام.

هيام

أهل الحارة لا يقدرون العبقري الوحيد الذي أنجبته الحارة بعد معتصم طبعاً، أقصد عبدالكريم، أعلنت انحيازي له حتى ضد معتصم. قلت لا تعلقوا المسؤولية على مشجب عبدالكريم، لم أره يذهب مرة واحدة إلى بيت سهام، هي التي تتردد عليه علناً جهاراً نهاراً تتحدى مشاعر الناس، هي التي فرضت نفسها عليه. وعبدالكريم بالمناسبة، هو ابن الحارة الوحيد الذي تظهر صوره في الصحف؛ لأنه العبقري الوحيد (عبقرية معتصم المعقدة عصية على فهم الناس العاديين).

مرة قرفصت في الليل تحت نافذة بيتهم، وكان عبدالكريم يعزف، يا إلهي، حين عزف عبدالكريم استيقظت أحلامي، أحلام يقظتي.

سهام

منذ أن اعتقلوا عاصي صار البيت خواء صافياً، والزمن سلحفاة لم اكتشف أنه كان يملأ البيت بحضوره، بحركاته، بصخب ضحكته إلا بعد أن ذهب.

كنت أعتقد أن الأثاث يملأ البيت، لكنني اكتشفت أن حضوره ملأ البيت. كان السرير مختلفاً دافئاً أنيساً، والغرفة لها رائحته، رائحة تبغ غليونه. لا يدخن في الغرفة، يدخن في الشرفة فقط، تلك الشرفة الزجاجية المشرفة، يتسلل جزء من رائحة غليونه إلى غرفة البيت، اعتدت رائحة تبغه أدمنته، صارت رائحته جزءاً مني، انتقلت إليَّ كعدوى حميمة.

صحفه، مجلاته، كتبه فوق طاولة الطعام وعلى نافذة الحمام وعلى السرير والكنبات، إلا غرفة الضيوف. أقول له إن صالة الضيوف ينبغي أن لا تشي بأسرارنا، لا تقل للضيوف ماذا نقرأ

وكم يدخن، وهل نحب الترتيب أم الفوضى. غرفة الضيوف قناع أنيق بسيط الملامح.

كان يدخن ثلاث أو أربع سجائر إلى جانب الغليون، رائحة تبغ الغليون تختلف يحلو لي أن أشمها أحياناً. أضحك وأقول له دخن الغليون حتى أشم. تقول إن ضحكتي رقيقة وإنني كلي رقيقة ناعمة. ضحكتك مثل البنات يتضرج وجهك حياء، يورد، وجهك يورد حين تضحكين. بعد اعتقاله بسنتين بدأت أكتشف عالم الموسيقى، وعبدالكريم دليل يحترمني. مرة واحدة حاول لمس يدي حين حضرنا «كونسرت» معاً، سحبتها برفق، لم يعلق، كان في صمته اعتذار. لم يكررها، ثلاثة أيام لم أره، كأنه جرح رقيق، جاء واعتذر. قال إن الموسيقى جعلته يشطح، يخرج عن طوره، تركته على سجيته بلا كوابح، أقسم أن تلك «الواقعة» لن تتكرر مرة أخرى.

قلت إنني أشعر أنه أخي.

ضحك، قال إنه يشعر أنني ابنة عمته.

وأمي طالبتني بعد الدروس الخصوصية أن لا أذهب إلا برفقتها، أو في السر، أو أتصل بأم عبدالكريم لتستقبلني على الباب فيراها الجيران، ويعرفون أنها في الداخل.

يريدون أن تكون علاقتي الموسيقية بعبد الكريم مثل غرفة الضيوف، قناعاً نظيفاً أنيقاً حتى لو كانت كل الغرف الأخرى غارقة في الفوضى.

رفضت، احتراماً لنفسي. قلت إنني أتعلم العزف على البيانو،

وأسمع العزف. سماع العزف ورؤية العازف مباشرة غير سماع الموسيقى من المذياع. أما حضور حفل الأوركسترا فهو الإشراق والكشف، عندها تأخذني الحال.

كان أبي يقول لي إن سماع أم كلثوم من المذياع شيء، وحضور حفلة شخصية مباشرة لها شيء آخر. قال إنه أحب أم كلثوم لكنه حين سافر خصيصاً لسماعها في القاهرة شعر بأنها هيمنت عليه تماماً سحرته، إنه الغناء الذي يتحدث عنه المتصوف.

الخواء الذي تسلل إلى بالي بعد اعتقال عاصي ملأته الموسيقى بأثير ناعم. موجة التصحر انحسرت عن روحي، وارتدت مفسحة أعماقي للاخضرار، والهواء النقي الرضي، عدت خضراء بعد أن زحف قحط غياب عاصي إلى دخيلتي.

حتى انتقالي إلى بيت أمي لم يحل مشكلة الخواء. لم أنتقل أصلاً لحل مشكلة الخواء، أمي قالت إن الناس ينمون على امرأة تعيش وحدها بلا زوج ولا أولاد.

عمي ايضاً قال إن الناس هنا يلوكون سمعة امرأة تعيش وحدها حتى لو عرفوا أن زوجها في المعتقل. ماذا لو تردد ابن عمها الذي عاد من أمريكا إلى بيتها؟ معظم الناس لن يعرفوا أنه ابن عمك. سيهمسون: إنها تستقبل رجالا غرباء. وحتى لو عرفوا أنه ابن عمك، وتردد عليك كثيراً، فإن ألسنتهم ستعثر على حكاية تمضغها. نحن هنا مازلنا نعيش نظام الحارات، حيث الجيران يعرفون معظم ما يدور في بيوت جيرانهم، وبقال الحارة وكالة « رويتر ». في أقاصي المنطقة الغربية لايوجد نظام حارات، حيث لا يعرف الناس

جيرانهم. لكن بيتك هنا وبيت أمك هنا، في الحارة القديمة، لا في الضواحي الجديدة في الغرب.

الحارة كلها عيون وآذان. ليس للجدران آذان تسمع فقط، بل للهواء والشجر والحجر عيون وآذان وأنوف وأصابع.. رادارات راصدة. معظم سكان الحارة عجائز وشيوخ متقاعدون، يشغلون أنفسهم بالنميمة، يقيم بعضهم جلسات خاصة للنميمة، ويا ويل امرأة من سكان الحارة إذا سقطت تحت ثقل ألسنة العجائز، إنهن يطحن، يسحقن سمعتها بحجار الرحى، ويمضغنها قبل كل وجبة، ويعلكن اسمها بعد كل وجبة.

ترى.. من المعتقل؟ أنا أم عاصي؟

كانت الزيارة ممنوعة، والمعتقل الصحراوي بعيدا، تراسلنا، قال جاءته رسالة من معتصم يطعن فيها بشرفي، ثم صار يحلم ذات الحلم كل ليلة، أنا وعبدالكريم معاً، وعبدالكريم يقول ضاحكاً:

- ليتهم يحكمون عليه بالمؤبد.

بات يتخيل أن رائحة حكايتي المزعومة مع عبدالكريم وصلت إلى المعتقل. إن رفاقه يختلسون إليه نظرات مستريبة مستطلعة لها نكهة الفضول والاتهام والرثاء معاً.

حين جاءت الرسالة الثانية من معتصم، نهض من فوره، وطلب رؤية مدير المعتقل واستنكر ووقع على بياض وخرج.

بعد أيام التهنئة الأولى، اكتشفت أن عاصي، قد تحول إلى طاغية مهووس متوحش.

تنتابه نوبات شك كالهلوسة، كالوسواس، يضربني بقبضتيه وقدميه،

يريد انتزاع اعتراف بأنني على صلة جنسية بعبدالكريم.

هو الذي لم يرفع يده عليّ إلا ليمسح على شعري، أو يلعق بأصابعه ظهري. هو الحساس الذي كان يجلس على الشرفة، قبل الاعتقال، ويقول لي انظري إلى الأفق مدي بصرك إلى ما وراء الأفق، هل تبصرين ما أبصر؟ هل تبصرين المدينة الفاضلة والإنسان الجديد، قادمين نحونا من المستقبل؟ هل تشعرين أننا نحن أيضاً نتقدم نحوهما، وأن المسافة الفاصلة لم تعد شاسعة؟

لا أتكلم عن معجزة ـيقول ـ هاهم الماركسيون حققوا حلمهم في نصف القارة الأرضية، وهاهم الوحدويون ينبثقون في مصر وسورية والعراق. ورغم كل الخلافات والأخطاء والسلبيات، فإننا سنصل إلى المدينة الفاضلة، وسيولد إنسان جديد حر سعيد، أما إصلاح الأخطاء فمن داخل المؤسسة لا من خارجها.

يا الهي، هذا الرجل المرهف الصلب معاً يتحول إلى جلاد بعد رسالتين كتبهما رجل معاق، وبعد منامات! ماذا.. منامات؟ يصدق ما يراه في المنام؟ يؤثر عليه قال لايصدقه، لكنه يؤثر عليه.

أما قمة جنونه فقد بلغت الذروة الشاهقة حين ذهب إلى بقّال الحارة، وانتبذ به ركناً قصياً وسأله عن طبيعة علاقتي بعبد الكريم. يا الهي، لم أصدق أذني حين قال إنه حقق مع البقّال، واعتبره شاهداً، وإن البقال مسك قميصه وشده ثم نفخ فيه دلالة على أن العلم عند الله. لكنه قال إن معظم الجيران حكوا، وإنه رآني بأم عينه أدخل إلى بيت عبدالكريم دون أن تكون أمه في البيت: أي نبقى أنا وعبدالكريم وثالثنا الشيطان في بيته وحدنا. وأكد البقّال أيضاً أن

بعض الجيران قالوا له إن عبدالكريم مرّ عليها في الليل ، بعد أن يغلق هو دكانه، ويأخذها، وهي متزينة أنيقة ويذهبان في سيارته بعد أن أُغلق الدكان ويعودان في ساعة متأخرة، بعد الساعة العاشرة ليلاً: يعني في منتصف الليل. البقّال تردد كثيراً قبل أن يعترف. في البداية قال إنه لا يتدخل في شؤون الناس. لكن عاصي بسط يده اليمنى وفيها مئة دينار، ثم دس يده في خاصرته ورفع طرف مسدس من تحت سترته ليراه البقّال. امتقع وجه البقّال، اصطكت ركبتاه، قال عاصي بصوت قاتم:

– تعودت السجن لدرجة أنني مشتاق للعودة إليه ، فهل أقتلك لأعود؟ أعتقد أنها أضمن وسيلة.

سكت عاصي لحظة ثم رمق البقّال بنظرة كاوية وقال:

– اختر بين النقود أو طلقة من المسدس، بين الجزرة والعصا.

سرت رعدة في جسد البقّال وهو ينظر إلى عيني عاصي المشعتين بنظرة سوداء مجنونة، ثم قال بصوت متهدج مضطرب إنه سيقول ما سمعه من الآخرين، وإنه لا يحط في ذمته، ولا يؤكد التهمة ولكنه لا يضمن براءتها (يعني أنا زوجة الرجل الذي صار يشتاق إلى المعتقل بدل الاشتياق إلى المدينة الفاضلة) وحكى البقّال كل ما سمعه ورآه، لكنه رفض أن يقبض المئة دينار.

قال الجبان إنه اعترف وحكى لأنه بعد أن فكر في الأمر أدرك أن واجبه كصديق قديم لعاصي أن يضعه في الصورة. قال:

– أنا قمت بواجبي، أنا وضعتك في الصورة فقط، ولن أتقاضى ثمن وضع أخي وصديقي في الصورة.

نفث عاصي دخان سيجارته في وجه البقال، وضع يده على خاصرته، ثم بصق السيجارة على الأرض دون أن يستخدم أصابعه، قذفها من شفتيه، كادت تلامس وجه البقّال، لكنها سقطت بين قدميه، انقلب عاصي على عقبيه، ثم وقف جامداً لا يزول ولا يقول ولا يرد على تحيات المارة من أبناء الحارة وقف مثل رجل مسحور، وراح يحدق في السماء، ثم احدودب ظهره، وبدأت دموعه تنهمر بصمت من عينيه، وعاد إلى المنزل.

رأيت دموعه، قال إنها دموع الندم، الاعتذار عن نوبة جنونه المؤقت، قبل كفي، كاد ينحني ليقبل قدمي فحلت دون ذلك، قلت له:

- جرحتني جرحاً عميقاً.. هل بلغت درك سؤال بقّال عن براءتي، أنا! ؟ قال وهو يكفكف دموعه إنه لا يحب الحياة إلا لأنني فيها، إنه سينتحر إذا صمّمت على الطلاق. قال إذا أنا لم أفهمه أنا، حبيبته، فمن ذا الذي سوف يفهمه؟

قال إن السجن يؤثر على عقول الناس، خاصة المعتقلات الصحراوية حيث الشمس تضرب الرؤوس طوال النهار، وتلاحقها إلى الزنازن متسللة من نافذة الزنزانة، من بين القضبان.

وضع رأسه عليَّ وانهار بالبكاء، عصفت به نوبة هستيرية من النشيج الحاد قال إنه كان في فرن، في جهنم، وإن حرارة الشمس أثرت على عقله، قال الشمس ضربتني، وقال إنه بدأ يستعيد رشده، ثم ناشدني:

- ألم تطالبي بمهلة حين اتهمتك بالفتور في سريرنا؟ أنا أطلب

أيضاً مهلة منك. أعطيني فرصة جديدة كي أستعيد توازني، إذا هجرتني، لن أبقى على وجه هذا الكوكب. لنعط نفسينا وجسدينا فرصة ومهلة.

وانهمر مطر غزير مباغت على زجاج النافذة، ضممته إلى صدري ورحت أنتحب أنا أيضاً، فعاد ينتحب ويشهق من جديد. كانت سمفونية غريبة من عزف قلبين عاشقين على أوتارهما ومفاتيحهما.

وانطلت الحيلة عليَّ، أو لعله كان صادقاً ثم انقلب مزاجه، لأنه لم يتحرر من هوسه. اكتشفت ذلك حين صوب فوهة بندقيته في رحلة الصيد إلى رأسي، وحين صاح معتصم المعاق:

- لا.. دعني أنا أفعل ذلك، أنت قضيت ما يكفيك في المعتقل.

قال عاصي:

- أنت عاشق والمستقبل أمامك، لكنني ميت.. يمشي على قدمين.

وركضت، للوهلة الأولى حسبته يمزح، يداعبني، حتى إنني اعترضت قلت قد تخرج رصاصة خطأ، وحين رأيت نظرة عينيه المظلمة أدركت أنه أعدّ لهذه اللحظة إعداداً محكماً. ركضت، صاح معتصم فيّ وأنا ألهث، وهما يتصايحان، ثم تناهى إلى مسمعي صوت خطوات تركض خلفي، وعثرت قدمي بحفرة فسقطت، كانت السماء صافية حين سمعت صوت رصاصة.

أحسست بسمفونية الطبيعة، سمعتها، رأيتها، شممت رائحتها، للطبيعة موسيقى نمر بها ولا ننتبه إليها، تهدر مع الريح أحياناً،

نسمعها، ولكننا لا نصغي لها. حفيف الهواء، ورقة شجر يابسة سقطت وتكسرت، والأرض تحتي تنبض، التراب يختلج، أصوات منسجمة متنوعة تتكامل في تجانس يبعث الإشراق في الروح.. والغناء.

عاصي

أفرجوا عني. قالوا إنني قتلتها دفاعاً عن الشرف، وإن العفو العام يشملني. ولكن ما حاجة ميت إلى عفو، وإطلاق سراح؟ لو دعوني راقدا في زنزانتي، في قبري.

أمشي في الشوارع هائماً على وجهي، اللغة فقدت معناها؛ لذلك لم أعد أتكلم. لا عجرفة ولاجنوناً ولا ألماً. حين قال لي البقال صباح الخير، تلفّت حولي، ونظرت إلى السماء، فلم أر أي خير، تابعت مشواري دون أن أرد على تحيته، لم أقل له صباح النور؛ لأنني أرى النور، لكنه لا يعني أي شيء بالنسبة لي، الظلام والنور سيّان.

الأزرق الذي كان يعني السباحة والبحر والتحليق في الفضاء ومراقبة أشكال السحب، الأزرق لم يعد يعني سوى لون، كلمة تثير الألوان، ولا تثير أي رغبة بأي شيء، لا بالسباحة ولا بالاستلقاء

على الشاطىء أحد معارفي قال لي لماذا لا تسبح؟ رمقته بعينين مستطلعتين، تأملته بنظرات شاردة وقلت وانا أقلب شفتي السفلى وأرفع منكبي:

- لماذا؟

كان هذا الرجل (من معارفي، لأنني بلا أصدقاء، لأنني لا أستمتع بالصداقة) يريد أن (يعزمني) على البحر الميت، اعتذرت له، قلت إنني لا ألبي أي دعوة. ألح قال إنه لا يدعوني إلى وليمة عشاء أو غداء، إنه يدعوني لشم الهواء، لقضاء يوم على شاطىء البحر الميت، واحتساء البيرة والسباحة.

كنت أدس يدي في جيبي، وسيجارتي في فمي، أشحت عنه وابتعدت. قلت لنفسي ما فائدة الاعتذار؟ الرجل مُلح اعتذرت أول مرة، فلم يفهم. إن تركته وابتعدت سيعتب علي ماذا تعني هذه العبارة؟ ما الذي سأخسره إذا عتب علي؟ لن يقل رصيدي في البنك، ولن ينهار بيتي فوق رأسي إذا عتب علي.

حتى لو كنت أملك الجرأة على الانتحار، وحاولت الانتحار، لما عتبت على نفسي، لكنني جبان، أدركت بعد عدة محاولات فاشلة وغير جادة أنني جبان. قتلت، بشكل أو بآخر، سهام دون أن يرف لي جفن، لكن حين سددت المسدس إلى رأسي ارتعشت يدي وطاشت الرصاصة فاستقرت في الجدار.

أدركت أنني لا أملك الجرأة على وضع حد لحياتي، خصوصاً بعد أن قال لي الطبيب إن الانتحار أصعب من الولادة بكثير، وإن نسبة عالية جداً من محاولات الانتحار تنتهي بشلل في الدماغ، أو

كسر في العمود الفقري، ولا تفضي إلى الموت.. لا تنتهي الحياة.

أدركت بكآبة أن حكماً بالحياة المؤبدة في هذا المعتقل الممتد من كندا إلى جنوب افريقيا، إلى أن ينفذ قابض الأرواح، تنفيذ حكم الإعدام العملي الفعلي بي، لكن منذ الآن حتى تلك اللحظة سيكون موتي معنويا، وأنا صريح في هذه القضية. قبل أيام شعرت بأن صديقة (صداقتنا من طرف واحد.. طرفها، فهي بالنسبة لي من معارفي) تتحرش بي مداورة، قلت لها بصراحة أن لا رغبة لي في الحب ولا الصداقة ولا الجنس.

- وقح.. كاذب. .

وابتعدت مغضبة.

لا آكل بشهية، كيف يأكل بشهية من فقد شهيته للحياة كلها؟ ثم فكرت بالنزول إلى البحر الميت، إذ انقطعت صلاتي بكل ما يحيط بي، لكنني أشعر بعلاقة غامضة بيني وبين هذا البحر.

لكنني سأذهب وحيداً، وليس مع أي من معارفي.

◆

في فندق البحر الميت نزلت، ثم هبطت بكامل ملابسي إلى الشاطئ، وغمرني هذا الإحساس بأن علاقة وشيجة خفية تربطني به، وتربطه بي، فهو ميت مثلي، وهو حي مثلي، لم يدفنا أحد، ولم يطلق علينا حبيب رصاصة الرحمة، ولم يقم لنا أحد جنازة.

كان مالحاً مثلي، شممت الملح في الهواء، رائحة البحر الميت تشبه رائحتي، (الملوحة) موقف من الحياة، كأن البحر يتحدى

الحياة، مادامت الحياة قد حكمت عليه بالحياة، وهو يرغب في أن يموت ويدفن في قبر إذن هو أيضاً، بالمقابل، لن يسمح للحياة أن تحيا فيه. الحياة تحول بينه وبين الموت، فيرد هو، يعاقبها يموت معنوياً ولا يسمح للحياة أن تحيا فيه.

ملوحته موقف مرّ أسود من الحياة. الملوحة موقف، الملوحة موقفه هو أيضاً من الحياة، الملح الذي ينثر على جرح فيضاعف عذابه.

رش الملح على الجرح شماتة، تشفي.

الناس، المارة، الواقفون يرمقونني بنظرات التشفي والشماتة، لكن عيني ميتتان، لا تستقبلان أي نظرة ولا ترسلان أي نظرة. لم أعد أكترث، لا بالنظرات الشامتة ولا المحايدة ولا بأي شيء آخر، ولا حتى الأصوات والألوان.

روح سهام حرة طليقة تحلق في فضاء واسع، وأنا راقد في هذا العالم المعتقل الكبير، انتظر حكم الإعدام الحقيقي، انتظر تنفيذ حكم الإعدام، أرجو أن لا يطول انتظاري، أرجو أن لا أعيش مثل جدتي، جدتي عاشت ثمانين عاماً، يا الهي!

لا، لن أصل الستين، سينفذ عزرائيل حكم الإعدام فيّ قريباً، لأنني أسرف في التدخين، (لم أعد أدخن الغليون منذ أيام المعتقل) وأصبحت أسرف في معاقرة الخمر، بالمناسبة، أحسن ما في الخمر هو تخديرها حاسة الزمن. حين أشرب أنسى الزمن، لا أحسه، يتبخر وزنه الثقيل الجاثم على ظهري مثل تمثال ضخم، لا يهبط ولا يترجل. أضف إلى ذلك كله أنني لا أتحرك، ولا ألعب أي نوع من

الرياضة.. اللهم سوى التثاؤب، ثم إنني بت أعشق النوم. طبيبي النفسي الذي يعتقد أنني مصاب بالاكتئاب لا بالموت يكتب لي وصفة دواء يخدرني، أحلق ثم أنام، قال خذ ثلاث حبات في اليوم، واحدة في الصباح، والثانية بعد الغداء، والثالثة قبل النوم. ليذهب إلى الجحيم إنني أتناول ثلاثة أقراص صباحاً، وثلاثة عند الظهيرة، وثلاثة مساء، والصيدلاني من معارف، صيدلي الحارة، يعطيني دون حاجة إلى وصفة طبية، يقول:

- لا تفرط.

لكنني أفرط

أعتقد أن عزرائيل سيخرجني من معتقل الكرة الأرضية، وينفذ حكم الإعدام فيّ بعد ثلاث سنوات تقريباً. هكذا تقول حاستي السادسة، يا إلهي، هل سأنتظر ثلاث سنوات أخرى في معتقل الكرة الأرضية؟

كل أصدقائي ماتوا: إبن سينا وابن عربي وابن رشد وابن خلدون، والمتنبي. لكنني أزجي الوقت معهم أحياناً. لعل أبا العلاء المعري أقربهم إلى قلبي. هو الوحيد بين أصدقائي الموتى (أبو) هو (وأبو الطيب) البقية أبناء لا آباء.

منذ شهر أقفلت باب البيت ورقدت في سريري. حولي (أبو العلاء) و(أبو الطيب) وابن خلدون وكتاب (كفاحي) لابن الكلب هتلر.

أعطيت معتصم مفتاحاً. فقط معتصم وعشيقته زوجته هيام يأتي حاملاً صينية الطعام عند الظهر، يقول لي:

- استو في مجلسك.

أقول ما لي نفس. يقول إنني لم آكل من يومين، وإنه سيطعمني، إن رفضت الطعام بالقوة.

ويحكي لي عن عشقه لهيام. يقول إنهما يقضيان معظم النهار وهما يلعبان ويلهوان، لعبة الطبيب والمريضة، ولعبة الهرب من البيت. يهربان، يتيهان في مناطق مجهولة من المدينة، يأكلان آيس كريم، هيام تحب الآيس كريم هو يفضل الشوكولاتة. ويلعبان لعبة "طماية تخباية" التي يسميها المصريون "الاستغماية" لكن ملعبهما الجبل كله. تختفي هي في المدرسة الخاصة، تقفز عن سور المدرسة وتختبىء هناك وهو يبحث عنها، فإذا يئس وضع اصبعيه في فمه وراح يجول في الجبل ويصفّر معلناً الاستسلام. أما هو فيفضل الاختباء وراء سور المسجد.

قال معتصم إنها تتحول إلى مجنونة احياناً، مرة اختبأت وراء سور المخابرات، اعتقلوها وصارت مشكلة، ثم فهموا، وأطلقوا سراحها. ومرة اختبأت في المسجد، لكن الإمام يعرفها، فطردها.

ومرة، في يوم ماطر، اختبأت في بركة المنتزه ـ تصور ـ بكامل ملابسها قالت إننا كنا نفعل ذلك أيام الصغر. قلت لها ولكنا كبرنا، ورحت أجففها. طوال النهار نلعب، هي تختفي في مكان ما في الجبل، وأنا أبحث عنها. أحياناً يستغرق البحث عنها نهاراً كاملاً.

قال إنه يشتاق لها، وهي تشتاق له، بسبب هذه اللعبة. قلت له:

- هذه اسمها بالفصحى لعبة الخفاء والتجلي.

قال إنهما يتجليان على هذه اللعبة. وأحياناً إذا ابتعدت كثيراً

وسئمت من القرفصة خلف سور بيت مهجور، تصفر، لا تتقن التصفير بأصابعها، اشترت صفارة.

لكننا نقسم الجبل إلى ثلاثة أقسام حين نلعب لعبة "طماية تخباية" أو الخفاء والتجلي كما يقول الفصحاء. صحيح أن الجبل تل صغير، لكنه كبير بالنسبة لعشيقين يلعبان هذه اللعبة.

كل يوم نختار جزءاً من الأجزاء الثلاثة نلعب فيه.

وأشتاق لها وتشتاق لي، لأننا نختفي طوال النهار تقريباً. أنا أبحث عنها وهي تختفي، أو أنا أختفي وهي تبحث عني. إنها مجنونة طريفة صدقني. مرة يئست من العثور علي، دارت في شوارع تلك المنطقة من الجبل تصفر علامة الاستسلام واليأس وكأنها تقول:

- أخرج وبان.. عليك الأمان.

كانت منطقتنا ذلك اليوم تمتد من "الحاووز" إلى المدرسة الواصفية، أنا لم أسمع صفيرها. كانت تصفر عند البنك العربي، وأنا مختبىء وراء سور قصر "البشارات"، لم أسمع.

هل تعلم ماذا فعلت؟ لن تحزر، سعت، عندما يئست وتعبت، إلى مخفر الشرطة، وحين فهم رجال الشرطة الحكاية بعد لأي، دارت سيارة من سيارات النجدة وهي تقول بمكبر الصوت:

- إظهر وبان.. عليك الأمان يا معتصم.

لأنها أقنعتهم أنني لن أخرج من مخبأي إلا إذا سمعت هذه العبارة. لكن أنا أكثر جنوناً منها، قال معتصم، وهو يدس ملعقة الحساء في فمي، قال إنه يئس من العثور عليها مرة، فدخل الجامع، وشق طريقه بقوته الخارقة إلى مكبر الصوت، وكان إمام الجامع، يحاول

اقناعه بالعدول عن مناداتها بالتي هي أحسن.

لكن ذراع الإمام، في قبضة معتصم، ومعتصم شد، فدله الإمام على المذياع وطريقة استخدامه. خرج صوت معتصم من مكبر الصوت في الجامع وهو يقول:

- إظهري وباني.. عليك الأمان.

أي أنه تعب ويئس من البحث. قال إن الناس تجمهروا يحثهم الفضول على معرفة أصل هذه الحكاية الغريبة.

قال:

- أما في الليل، فيتحول نصفي إلى ذئب ولا يبقى من إنسانيتي سوى النصف. وهي تتحول إلى نصف ملاك، فلا يبقى من جسدها البشري سوى نصف جسد.

قال وهو يشاركني الحساء بيده، بلا ملعقة:

- نحن أحلى عاشقين في التاريخ البشري لأننا نعتاد على بعضنا بعضاً.

فيوم الأحد مثلاً قد تصحو هي فتكتشف أنها في العشرين من عمرها، وأنا طفل، فتعاملني كما تعامل الأم ابنها، ويوم الأربعاء مثلاً، نصحو فإذا بنا في عمر ناضج واحد، في عز مراهقتنا مثلاً، وعندها نبدأ ألعاب رعونة وطيش شباب.

قال مرة وهو يأكل ما في الصحن الذي جلبه لي:

- صدقني إننا أسعد عاشقين في العالم.. بل في التاريخ. مرة "إنهبلت" وصدقت حكاية التقدم والتأخر في العمر، فسألته افترض أنك في سن الخامسة والخمسين الآن.. هل تراني هنا، أم تراني انتقلت إلى

المقبرة، إلى العالم الآخر؟ فكر ملياً، ثم قال:

- لا.. أراك تلعب معنا، وتختفي في هذه الغرفة بالذات، على ذات السرير، تحت هذا الغطاء.. لكننا سنعثر عليك.

انهمرت دموعي، أحسست أن قناتي لم تلن، وإنما تحطمت، باتت حطاماً خراباً.

ومعتصم لم يلاحظ. قال إننا حين نبلغ ذلك العمر، ستنجب هيام له، أربعين طفلاً، حتى يصبح اسمه: علي بابا والأربعين حرامي!

◆

دخلت حلم يقظة، أقصد يقظة حلم، كنت أقرأ عن رجل كهل مدمر، مثل سد مأرب، حطام، مثل جدار برلين، أو مثل هيروشيما. كان الرجل المدمر شاباً، لكن معطفه الأسود يستر سره. كان يجلس على شاطئ البحر الميت مثل جثة من البلاء، ورأيت شحاذاً يدنو مني، لعله ظنني صندوق قمامة، إذ كنت متكوّماً على نفسي في عراء الليل والقمر يرسل قطرة شحيحة من الضوء؛ لأن القمر يذوب إلى قطرات. الشمس تصهره. وجاء المتسول، فرآني في غبشة يوم من أيام سنة ما، خمّن أنني صندوق قمامة. حين اقترب وأوشك أن يمد يده ليبحث عن فتات طعام، أطلقت عواء رهيباً. المتسول المسكين قذف نفسه في البحر الميت، الفندق أضاء مصابيحه، عوائي لم يكن عواء رجل جريح على جرحه ملح، عوائي زلزال امتد ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وانتهى في البحر الميت هامداً ذاوياً يلفظ أنفاسه.

أرقد في سريري أشاهد أفلام الفيديو التي يحضرها معتصم، أنتظر في معتقلي تنفيذ حكم الإعدام.

ولأنني ميت مجازاً، فقد تحررت من الخوف. معتصم وهيام ليسا أسعد الناس.. أنا أسعدهم، فأنا ميت ينتظر أن يموت.

هيام ومعتصم

جراثيم السحابة الكيماوية المحلقة من سماء العراق، تقع على رؤوسنا، وصحوننا، وأكوابنا، وشعرنا، وتتسلل إلى عقولنا، رؤوسنا، عبر قناة "ستايكوس" وهي أخت قناة "ديلاسيبس" في مصر.

قال لي إنه طفل رضيع، وإنه يريد أن يشرب من صدري حليباً، وكان يمص أصبعه قلت له إنك زوجي يا معتصم، وإنني امرأة ناضجة راشدة. أنت لا تريد حليب صدري، أنت تريد أن تشم رائحة الفلافل بالشطة من فمي، تريد أن ترضع قبلة من فمي.

وأكدت له أنني لست أمه، وإنما زوجته. وقلت لها أنا أعرف أنك لست أمي لكنني أريد أمي. قلت له أنت تحب أن تمضغ أذني، تقول إن أذني طرية مثل الرضاعة، خذ أذني بين شفتيك ولكن لا تعضها، إذا عضضتها سوف أزعل.

هذا كان في الصباح حين استيقظنا فإذا أنا امرأة ناضجة وأنت طفل صغير مدلل. لكن لا أدري متى وكيف لماذا، كالعادة، انقلب عمرانا، وكنا محظوظين هذه المرة، إذ وجدنا أنفسنا في سن واحدة في أواخر المراهقة.

قلت لك إنني أحبك منذ صغري، أي منذ الظهر، لأنك تمنحني الإحساس بالأمان. حين يعرف الناس أنك زوجي يتوقفون عن الضحك، ويعتذرون. قلت لها إنني لا أرغب في إيذاء الناس، لكنني لن أسكت إذا تجرأ أحدهم وسخر منها، قال إن أهل الحارة يعرفون أنها زوجتي ولا يسخرون، لكن عابري السبيل لا يعرفون.

وبعد الظهر تقهقرنا في مسار العمر، وحرد معتصم وقال لأمه إنه سيضرب عن الطعام إذا ظلت جارتنا سهام زوجة حبيبي وأخي عاصي تزور عبد الكريم، وأنا في غياب عاصي مسؤول عن شرفه وسمعته.

هكذا نحن، أنا ومعتصم مثل يوم اجتمعت فيه الفصول الأربعة، حرارتنا ترتفع عند الظهر، نكون في سن الرشد.. في صيف عمرنا، ثم ننقلب بعد الظهر إلى ربيع العمر (مثلاً) فإذا بنا شابان يافعان، ثم نتقدم نحو خريف العمر، ونلعب دور العجوز والشيخ، ثم ننقلب إلى شتاء العمر، ومعتصم يقول إن شتاء العمر هو الطفولة.

لكنني أقول إننا نكون يوماً في فجر عمرنا طفلين تائهين مشاغبين، ثم ننقلب إلى صبح عمرنا، وهو المراهقة، ثم ظهر عمرنا وهو سن الرشد والنضج ثم مساء عمرنا وهو الكهولة، ثم ليل

عمرنا وهو الشيخوخة. لكننا مثل الزئبق زئبقيان، لا نمر بالمراحل حسب ترتيبها الطبيعي، وإنما نثب إلى هنا ونكر إلى هناك ونفر من هناك وهكذا دواليك.

تائهة في أروقة الأزمنة، ودهاليز الدهر، لكنني أرى ما لايراه الناس، وأسمع ما لايسمعونه، وأعرف مالايعرفونه.

لماذا تعيش إذا كنت تعرف مسبقاً كل ما حدث وما سيحدث؟ لأستيقن أنني كنت على صواب دائماً؟ أم لأن الحياة مسرح ومعتقل. ترى المسرحية آلاف المرات، لكن أبواب المسرح لا تفتح ولا تغلق بإرادتك أو بإرادتي، والخروج والدخول مرهون بمشيئة غير مشيئتنا.

أعرف، أشم رائحة دم سهام وهي تمر من الشارع فتشخص الأبصار إليها إلى كمال جمالها، ونقص بالها.

أحس نبض ضجر عاصي، نبض ضجره مثل تكتكة الساعة، ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر، يشبك يديه خلف ظهره، ويذرع العالم من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، يدور حول الأرض التي تدور حول نفسها التي تدور حول الشمس ويتساءل: أما لهذه الدورة الدائرة المفرغة من آخر؟

في هذه الحارة، التي لم يبق من معالمها العريقة سوى بقايا شلتنا، كنا نلعب بالثلج ويقول معتصم إننا سنسمي العصابة: عصابة الكف الأحمر، ويقول عبد الكريم إننا سنسميها شلة الوردة البيضاء، فيزعل معتصم ويقول إن كلمة وردة توحي بالأنوثة، والبياض يوحي بطهارة الملائكة، ونحن ذئاب، لن يخافنا أحد من أولاد

الحارات الأخرى إذا كان اسمنا شلة الوردة البيضاء.

وشخصت أبصارنا كلها إلى عاصي كي يطلق فتواه الحاسمة، فقال دون أن يبتسم أو يعبس: عصابة الكف الأسود.

سهام التي تبحث عن حلول وسط قالت: عصابة الوردة السوداء، أو شلة الكف الأسود، فنهرها معتصم، وقال أن لا اجتهاد في موضع النص، والنص نص عاصي، وقد وضعه وانتهينا: عصابة الكف الأسود.

من أين يأتي معتصم بهذه الكلمات الصعبة الكبيرة؟ إنه شيخ وأنا طفلة، وحين أصبح عجوزاً، ينقلب هو إلى طفل.

كنا نمثل، ونضحك ونرمي السيارات بكتل ثلج تخفي في رحمها حجارة. معتصم يفتح فمه ويمثل دور شخص يأكل، ويقول إنه يأكل الهواء، وانتفض أنا مروعة. كيف عرف مصيرنا منذ الآن؟ هل يرى ما أرى؟ هل يسمع ما أسمع؟ لكنه لم يقل إننا سنشرب البحر أيضاً، قال سنأكل الهواء. والصوت الخفي الذي لا يسمعه غيري يقول إننا سنأكل الهواء ونشرب البحر ونحرثه. أبي كان أكثر تحديداً، حين يغضب يقول:

- الذي لا يعجبه كلامي، فليأكل الهواء ويسكت، أو ليشرب ماء البحر الميت، أو يبلطه إذا لم يعجبه كلامي.

وأبي رب أسرتنا، وهو رب عمل أيضاً، هو يقول ذلك عندما يغضب مني أو من أمي يقول إنه رب هذه الأسرة، وإذا غضب في المكتب من موظف أو عامل صرخ: أنا رب العمل هنا.

وأنا كنت أخاف عليه من النار ، ستشويه نار ذات هب،

وأحيا في حلم يقظة، بل في يقظة حلم، لا أحيا في اليقظة فقط، ولا أحيا في الحلم فقط، وإنما أحيا في يقظة الأحلام. مثل زرقاء اليمامة أرى مالا يرى. ويأتي الصوت الخفي ويهمس في أذني: انتظروا المخلص المنتظر، إنه فيكم وبينكم لكنه متنكر. أنا قلت إنه معتصم؛ لأن معتصم يملك القوة الجبارة ليخلصنا من صراع الأبيض والأسود، صراع فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ على الضوء، وصراع فيروز وصباح على الصوت، وصراع عاصي وعبد الكريم على سهام.

لكن الموسيقار محمد عبد الوهاب سينحاز إلى عبد الحليم حافظ، فيخسر فريد الأطرش الجولة ويغني أغاني الحزن والانكسار والهزيمة والبكاء.

وينحاز معتصم بكل قوته الخارقة إلى عاصي، فينتصر على عبد الكريم لكنه ليس انتصاراً حاسماً انتصار عاصي، وهزيمة عبد الكريم ليست هزيمة كاملة. هنا تتداخل الألوان ليس ثمة أسود داكن وأبيض ناصع وحدود دقيقة واضحة بينهما، لأن الرمادي زئبقي سينهب عاصي جسدها، وينهب عاصي روحها؛ ولأن حدود الأسود متداخلة في الأبيض، فلا بد من دماء حمراء، تحدد الحدود بخيط دم أحمر قان يفصل بين الأسود والأبيض.

إنني أشم، بحاستي السادسة، رائحة الدم الأحمر الضرورية كي لا يختلط الأسود بالأبيض؛ فالأسود أسود والأبيض أبيض، وإذا ماع أحدهما (أي صار مائعاً) ودخل منطقة الثاني ملغياً الحدود، نزف خيط دم أحمر ، ليكرس الحدود المحرمة التي يشبه اللعب فيها اللعب

بالدم والنار.

أحدق في خريطة العالم على جدار مكتبة أبي.

إنني أرى الماضي والحاضر والمستقبل دفعة واحدة قلت لمعتصم أمريكا وأوروبا المستقبل في الشمال، الشرق المتوسط الحاضر، افريقيا وجنوب آسيا الماضي.

نحن في الحاضر، لكن المستقبل في الشمال والماضي في الجنوب، المستقبل في أمريكا التي أنزلت رجلاً على القمر، رب أسرتي قال إنَ أمريكا مُنحلّة: جرائم مخدرات عنف، لكن أنا لا أخاف، مادام معتصم إلى جانبي، معتصم قوي مثل رائحة الحريق.

عاصي العقل المدبر للعصابة، سهام فاتنة، خلقها الخالق وكسر القالب، كلها بهاء. خضراء مثل افريقيا، عاصي يحط عينه عليها، عين عاصي على يدها، طلب عاصي يدها.

عاصي في عصابة سرية أخرى. كتم هذا السر، لم يقله حتى لمعتصم ولا لسهام، أخذوه إلى السجن، راح جسد سهام معه، لكن بالها ظل هنا. بالها عامر بالضجر. كلاب كل الذين يقولون إن جسدها ظل هنا، مع عبد الكريم، بينما بالها اعتقل مع عاصي، جسدها هناك، مع عاصي، في المعتقل، اعتقلوا عاصي فاعتقلت جسدها، جسدها في سجن، لكن بالها ينمو ويكبر، لم تعد الحارة تتسع له، صار أكبر من المدينة، ثم من البلد ولا تستطيع أن تسافر إلى المستقبل لأن جسدها معتقل مع عاصي، في زنزانته، إذن تسافر بلا جسد، تسافر مع عبد الكريم على صهوة الموسيقى.

لكنني لا أفهم لماذا سافرا إلى موسيقى غربية موسيقى لا أفهمها؟

لماذا لم يسافرا إلى عالم أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم وفيروز وصباح؟ لماذا سافرا إلى ذلك العالم الأجنبي، حيث الموسيقى ضوضاء بلا كلمات بلا أغان، موسيقى حاف، لا تبصرها، الأغاني، كلمات الأغاني تجعل الموسيقى مرئية، تخرجها من الخفاء إلى التجلي:

بكتب إسمك يا حبيبي على الحور العتيق..

تكتب إسمي يا حبيبي على رمل الطريق..

أسمع الموسيقى وأراها، أبصر الطريق والحبيب والرمل والحور، لكن عبدالكريم وسهام يحبان موسيقى صافية، مجرد أصوات، موسيقى لا تبصرها العين، أصوات خفية للا مفردات.

سهام بدأت تلعب على البيانو مع عبد الكريم، سهام تلعب بالنار، تلعب بدمها.

قال معتصم إنني ملاك. قلت أنا ملكة لا ملاك؛ لأن الملائكة لا يتزوجون. كشر معتصم وكانت الشمس تنسكب في عينيه، ورفع كفه فوق عينيه ليفكر، كأنه لا يعرف أن يفكر والشمس في عينيه، ثم وجد الحل، قال إنني مليكته، قال إن المليكة نصف ملكة ونصف ملاك، وهربت ضاحكة وقلت:

- يا مجنون.

أمي قالت وهي زعلانة ووجهها محتقن إننا إذا تزوجنا.. أنجبنا عفاريت: نصف بشر ونصف حيوانات. نهرتني، لكن أبي صفعني بقوة وفقدت توازني وسقطت على الأرض. قال إنه سيشرب دمي إذا سمع مرة أخرى أنني سأتزوج معتصم. لم أخف، لأنني أعرفه إنه

لا يستطيع أن يشرب دمي، ومعتصم يقف في الخارج كتلة من القوة البدنية الجبارة، وأنا أعشق القوة، إنه يحميني.

وهربنا عدة مرات: مرة إلى السينما، ومرة نزلنا إلى السوق وأكلنا آيس كريم. لكننا هذه المرة هربنا ونمنا لأول مرة خارج البيت وليس ليلة واحدة، وعاصي قال إن ابن عمه يملك منزلاً فخماً، وقال تتزوجان في منزل فخم والحارس يحمل الفطور إلى فراشكما كل صباح كما في الأفلام.

قال إن رب أسرتي رجعي، وإن رب أسرة معتصم متخلف محافظ يميني.

كان عاصي يحب جمال عبد الناصر، أنا كنت أحب ابتسامته وعينيه الواسعتين. حين رأيته في الصورة، قلت إن هذه الابتسامة أحلى ابتسامة رأيتها في حياتي، فلكزني معتصم، ومنعني من قول كلام غير لا ئق يثير غيرته.

ثم صار عاصي يشتم عبد الناصر. قلت له حيرتنا، إرسي على برّ، إما أن نحب عبد الناصر، أو لا نحب عبدالناصر، أما هذا التذبذب الزئبقي فأنا لا أحبه. فتح عاصي فمه دهشة وسألني:

- من أين جئت بكلمة التذبذب الزئبقي؟

قلت له إنني الآن في سن الكهولة، ولما أكون في سن الرشد أو الكهولة أقول كلاماً ذكياً. لكنني لا أضمن نفسي، ممكن أن أتقدم إلى الشيخوخة بعد خمس دقائق، أو أن أتقهقر إلى الطفولة بعد خمس دقائق؛ لأنني أنا ومعتصم أيضاً نتذبذب مثل الحرارة مثل الضغط ترتفع إلى أقصى حد.. إلى الشيخوخة الخرفة، أو نهبط إلى

أقصى درجة.. درجة الطفولة، وليس مرورنا بالمراهقة شرطاً ضرورياً، من الشيخوخة إلى الطفولة دون مرور بالمراهقة، أو من المراهقة إلى الشيخوخة دون مرور سن الرشد. هكذا نحن مثل الضغط والحرارة، نرتفع ونهبط في سلم أعمارنا إذا رأيت الحياة عمودياً، ونكر ونفر إذا رأيت العمر أفقياً.

وفي السرير همست في أذن معتصم:

- كيف ستتزوجني إذا كنت ملاكك؟

قال وهو يضحك ضحكة بيضاء في الغرفة المعتمة إن رأسي فقط رأس ملاك، أما بقيتي فبشر، وهو لا يريد أن يتزوج رأسي.

وكانت رائحته مثل رائحة البحر الأسود على الخريطة إلى جانب آنية الزهور، في بيتنا.

وغضبوا غضباً اهتزت له الجبال السبعة كالزلزال، ثم اجتمعوا اجتماعاً مغلقاً، وقرروا أن يأخذوني إلى الطبيب. وبعدما أخذوني إلى الطبيب اربدت وجوههم واكفهرت، لكن والد معتصم تمالك أعصابه وقال لأبي:

- نزوجهما.. ويسكنان في بيتنا أو في بيتكم.

فأقسم أبي أن يذبحني من الوريد إلى الوريد إذا دخلت بيته بعد اليوم، وأقمنا في بيت أهل معتصم. ووالد معتصم أضرب عن الكلام معنا، وقالت أمي إن أبي لن يقاطعني إلى الأبد. وأنا قلت، يعني ماذا فعلنا حتى نستحق كل هذا الغضب؟ يعني معتصم لم يفتح مالطا ولا جدار الصين؟ ولماذا لا تغضبون من اليهود إذن؟ تقولون إنهم اغتصبوا فلسطين ولا تعملون شيئاً، على الأقل، معتصم

لم يغتصبني اغتصاباً، تتشاطرون علينا، وتخافون من اليهود.

روحوا تشاطروا على اليهود الذين تقولون ليل نهار إنهم اغتصبوا فلسطين، وكنت أبكي، ورحنا مع عاصي وسهام إلى البحر الميت، وقال معتصم إن الأصول تقتضي دفن البحر الميت، لأن دفن الميت إكرامه، أو إكرام الميت دفنه. وضحك عاصي قال:

- مالك؟ قبل ساعة كان عقلك في رأسك.. لماذا صار صغيراً جداً الآن، أم لعله طار؟

عاصي يحب معتصم، كأنهما أخوان. ومعتصم يحب عاصي لكنه لا يحب عبد الكريم. قال إن عبد الكريم مدلل مثل البنات.

وحين أفرجوا عن عاصي بعدما قتل سهام وحكموه بالمؤبد ثم صدر عفو عام، فأطلقوا سراحه بعد سبعة أعوام في السجن قال إنه ميت؟

سبعة أعوام في المعتقل البعيد لأنه اشتغل في السياسة في السر. قالوا كان تحت الأرض. يا إلهي، كيف كان تحت الأرض؟ لعله يقول الآن إنه ميت، ويقصد أنه منذ زمن بعيد كان مدفوناً تحت الأرض.

وأنا مازلت أسمع تلك الأصوات الغريبة، وأرى رؤى غريبة لا يراها غيري، ليس كل يوم، وإنما بين الحين والآخر، وقال الصوت السري الذي لا يكلم غيري، إن عاصي يحلم أحلام يقظة، وإنه بعدما كان يرى المدينة الفاضلة في أحلام يقظته، صار يرى سهام وهي تخونه، وأنا قلت إن الحق ليس على عبد الكريم هي كانت تفرض نفسها عليه.

وعبد الكريم خرج من السجن. قال معتصم إنه رآها بأم عينه نائمة مع عاصي في يقظة الأحلام وهو معتقل في المعتقل الصحراوي البعيد، وضربها، حقق معها، رأيت الكدمات على وجهها، لكنني لم أر عينيها مكسورتين رغم الضرب المبرح، لم تنكسر عينها، مشت مثل علم رأسها مرتفع.

ثم تصالحنا، وبدأنا نذهب مشاوير ونشم الهواء. كنت أشم رائحة كراهيتها لمعتصم. كانت تكره معتصم؛ لا لأنه وشى بها إلى عاصي أيام المعتقل، ولا لأنه ضرب عبدالكريم مرة، لكن لأنها تنظر إليه بتلك النظرة الملعونة، تراه حيواناً وليس بشراً. ذهبنا معهما مرتين إلى البحر الميت، ثم رفضت الذهاب للصيد. قلت لمعتصم إنني لن أذهب مع ابنة الكلب هذه إلى أي مكان بعد اليوم. احتقن وجهه وسألني. قلت إنها ترى فيه حيواناً. قلت إنني أرى نظرتها إليه، أبصر نظرتها إليه. نظرتها إليه ليست نظرة إلى إنسان، أنا أرى عينيها، أرى نظراتها إلى معتصم، تنظر إليه خلسة باشمئزاز، تنظر إليه كوحش.

صاح معتصم:

- سأقتلها.. الزانية.. أنا حيوان؟ أنا وحش؟

وسألني إن كنت متأكدة من رؤيتي لنظرتها التي تراه حيواناً. فقلت إنني متأكدة. لكنها تخفي مشاعرها، عيناها تفضحانها وتخفي مشاعرها لأنها تخاف غضب عاصي، وسمعت عاصي يهمس في أذنها:

- هل ستحطين عقلك في عقله؟ كنت أظن أن عقلك كبير، اتركيه في حاله.

وسمعتها تقول إن صدرها واسع وإنها تنسى.

وصرخ معتصم مثل ذئب جريح قال صدرها واسع لدرجة أنه يتسع لعدة رجال. قال إن صدرها واسع جداً، إنه يتسع إلى بيانو ضخم وكانت النار تتأجج في عينيه.

وكنت أرى نظرة مقلقة في عيني عاصي. الصوت الخفي قال لي أنظري إلى نظرة عاصي إلى سهام. مازالت مشتعلة بالحقد وسوداء، ومصالحته لها مؤامرة مدبرة. ورأيت نظرة عاصي إلى سهام، قال الصوت انظري إلى عينيه بحاستك السادسة، ونظرت إلى عينيه بحاستي السادسة التي تسمع همس النمل وترى العواصف آتية قبل أن تأتي. ورأيت نظرته إلى سهام تفوح بالحقد الأسود، شممت رائحة دخان في نظرته إلى سهام، وأدركت - كما نبهني الصوت - إلى أن المياه عادت إلى مجاريها من طرف سهام، لكنها لم تعد إلى مجاريها من ناحية عاصي.

وشممت رائحة الخطر تفوح من نظرات عاصي. ولما ذهبوا إلى الصيد، رجوت معتصم أن لا يرافقهما. قال أنت لا تحبين سهام لأنها ترى فيّ وفيك حيوانين لا إنسانين، ثم أطلق ضحكة لا يطلقها إلا صاحب قلب أبيض، لأنها ضحكة بيضاء وقال إن الإنسان حيوان فعلاً. ألم يقل ذلك الرجل الحكيم إن الإنسان حيوان ناطق وحيوان عاقل؟

وقال إنه اليوم، في الصيد، سيقول لها أمام عاصي إننا جميعاً حيوانات، ولكننا حيوانات ناطقة عاقلة.

وقال لها معتصم وهو يبحث عن طير يصطاده إنها تنظر إليه نظرتها إلى حيوان. وقال كلنا حيوانات ناطقة عاقلة.

وضحك، فانتفضت كالملسوعة، وقالت:

- أنت بالتحديد حيوان ناطق لا عاقل.

صرخ في وجهها:

- ولماذا يصاحبني زوجك إذن؟

قالت:

- لأنه يحتاج إلى كلب حراسة.

وكان عاصي يبول وراء شجرة نائية، ثم عاد وسأل:

- أين الطيور حظنا زحل اليوم.

هذا ما قاله لي معتصم بعد أن عاد إلى البيت من رحلة الصيد وقال إن سهام أصيبت برصاصة طائشة وإنها في المستشفى و(إنهم) يريدونه للتحقيق، وهو يبحث عن هويته. قال يريدون هويتي، ابحثي لي عن هويتي.

لكن عاصي أصر في المحكمة أنه هو الذي قتل سهام، وعن سابق تصور وتصميم، وليس برصاصة طائشة.

المحامي كاد يثبت أن معتصم هو القاتل وليس عاصي. لكن معتصم التزم الصمت، وقال إنه لا يذكر وإنه غريب منذ ولادته. فلجأ المحامي إلى نظرية الرصاصة الطائشة، وقال إن عاصي يصر على أنه قتلها، لأنه مصاب بالاكتئاب الحاد.

حكموا عليه بالمؤبد ، ثم حاكموه مرة أخرى ، أو صدر عفو عام لا أدري المهم أنهم أطلقوا سراحه بعد تسع سنوات هذه المرة. وهذه المرة لم يعتقلوه في المعتقل الصحراوي البعيد، اعتقلوه هنا، في سجن المدينة، فكان معتصم يزوره أحياناً ويقول إن عاصي فقد

عقله. يقول إنه ميت ينتظر الموت، ميت بقرار منه، وهو ينتظر قرار القضاء والقدر.

◆

إنه الخريف، خريف عالمنا. كأن الفصول الأخرى كلها ماتت، مثل عاصي، اعتكفت في مكامنها، ولم يبق سوى الخريف، الفصل السنوي الوحيد. لعل الكرة الأرضية توقفت عن الدوران حول نفسها ثم حول الشمس.

لأن الفصول الأخرى مرتبطة بدوران الأرض. أليس كذلك؟ الله أعلم. لكن الخريف غير مرتبط بدائرة الأرض المفرغة، الخريف حر، حر مثل عاصي، لأن الخريف فصل الموت، وعاصي يقول إنه ميت مثل الخريف. عاصي صار خرفان لا خريفاً، إنه ينحرف يقول كلام خرفانين عن موته.

لكن معتصم يقول إنه ظن مثلي أن الخريف جاء وأقام ومكث. لكن بعد بحث واستقصاء اكتشف أن الصيف هو الذي جاء والتصق بنا. حجز المدينة لنفسه إلى الأبد، فلم تعد الفصول الأخرى تمر، لأن الصيف تزوج مدينتنا، ولم تعد قابلة لغزل الفصول الأخرى.

أنا أقول الخريف وهو يقول الصيف. أتحداه أقول:

- أثبت كلامك.

يقول متبرماً:

- أثبتي أنت أولاً .

أقول إن حاستي السادسة تشم، رائحة ذبول: الأشجار تذبل، والعمر يذبل ،الأوراق تتساقط، "عصرنا سقط مثل ورقة على شجرة في الخريف " ألم يقل عاصي الخرفان ذلك؟

قال: بل هو الصيف، وهذا دليلي، ضمني إلى صدره. قال إنه في الصيف يحبني أكثر لأنه يراني دائما خارجة لتوي من الحمام، أشع كأنني غسلت نفسي بأشعة الشمس لا بالماء.

وقال إنه يحب أن يشم رائحة عرقي، ورائحة عرقي لاتفوح إلا في الصيف، سألته لماذ يحب رائحة عرقي؟ لا أحد يحب رائحة عرق الجسد. قال:

- إلا الحيوانات، وأنا حيوان، أنا ذئب.

ثم وضع أصبعه على جبينه كما يضع الطبيب ميزان حرارة في فم مريض وأنزل اصبعه وقال انظري العرق على جبيني. إنه الصيف المؤبد، لا الخريف. عاصي يقول إن الخريف فصل النهايات، وإنه أصيب مؤخرا بعمى ألوان، إنه لا يرى سوى الأسود والأبيض والرمادي. قلت له وأنا أحمل له صحن " المجدرة" إن هذا ليس عمى ألوان.

عمى الألوان، مثل أبي، لا يميز بين الأخضر والأزرق مثلاً. قال إن عماه معنوي مثل موته. وسألته عن معنى معنوي، فقال: رمزي. وضحكت وقلت له إنني كنت أحب الممثل المصري أحمد رمزي قبل معتصم.

إنه لا يفتح باب منزله إلا لي أو لمعتصم. يخرج قليلاً، لكنه قطع كل صلة له بالناس.

رائحة بيته تشبه رائحة التاريخ. قلت له أن يجلب خادمة لتنظف، لم ينطق. قلت إنني سأمر به نصف ساعة باليوم أنظف البيت أفتح نوافذه كي يتنفس. بيته لا يتنفس، النوافذ مغلقة ليلاً نهاراً، وهو يدخن بشراهة، بيته مدخنة، لا يتنفس سوى دخان السجائر، قلت ينبغي تهويته كل يوم.

عاصي

يقظة أحلام، أحلام يقظة، أحلام توشك أن تستيقظ، أحلام تيقظ " الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ". الموت وكوابيس المنام لا تفرق بين غني وفقير، حاكم ومحكوم.

وأنا ميت في معتقل ضيق خانق اسمه الأرض، كوكب الأرض، إنه أصغر من قبر واقل من زنزانة. قلت أودع الأرض قبل أن ينفذ القضاء والقدر حكم الإعدام بميت. سافرت من هنا إلى باريس إلى موسكو إلى واشنطن ونيويورك واورلندو وسان فرانسيسكو.

أحسست أن أهل اوروبا الغربية، بشكل عام، هم الأحياء الوحيدون على هذا الكوكب. أما بقية أنحاء العالم فرائحة الموت تفوح منها.

استوقفتني عاهرة في أحد شوارع نيويورك، فاوضتني، حملتها

إلى الشقة الصغيرة التي استأجرتها. همّت بخلع قميصها، أشرت لها بيدي أن لا. قلت إنني ميت، والموتى لا رغبة لهم بأي شيء. قلت لها إنني سأدفع لها مقابل أن تستمع لإنسان أتى من آخر الدنيا، من مدينة لم تسمع بها في حياتها من زمن ما قبل الزراعة. رمقتني بنظرة مستريبة، طمأنتها، قلت لها إنني لست مجنوناً.. أنا ميت. مدت يدها وطالبت بالنقود. بعد أن دفعت لها استرخت أعصابها، وخفت قلقها الهادر، سألتها وأنا احتسئ الويسكي نخبها:

- لماذا يعيش إنسان يحب أن يموت، بل إنسان ميت، مات زمنه واندثر رفاقه وخانته أحلامه وزوجته؟

قلت لها وأنا أجرع من كأسي بنهم (بينما اعتذرت هي قائلة إن الوقت مبكر لشرب الخمر، كأن الوقت غير مبكر لممارسة الزنا الحيواني):

إنني أعتقد أن الغانيات صاحبات أغنى تجارب في العالم، خصوصاً اللواتي يعملن في الملاهي. إنهن يسمعن آلاف الحكايات ويبصرن آلاف الوجوه وجوه أكل عليها الزمن وشرب، وجوه سوف يأكل عليها الزمن ويشرب. ومعظم هذه الحكايات صحيحة. الإنسان يحب أن يحكي كل المختزن في قلبه إلى امرأة لا تعرفه، ولا هي مهتمة بمعرفته، وتبعد آلاف الأميال عن عصره، ولكنها مستمعة جيدة، هل أنت مستمعة جيدة؟

سألتني إن كنت لا أرغب في الجنس فقط، أم إنني لا أرغب في الحياة برمتها؟ قلت أنت مستمعة ممتازة. أمثالي يبحثون عن مستمعة ممتازة، ولا يثيرهم شيء مثل الفضول. اهتمام المستمعة

بحكاياتهم، سواء كان الاهتمام حقيقياً أم مزيفاً.. لا فرق. المهم أن تسألي. السؤال دليل فضول، دليل اهتمام، تصوري، أن تهتم بي وبقصتي امرأة تعيش على بعد آلاف الأميال والأزمنة من بلدي.

يا سيدتي، أشكرك لأنك سألتني هذا السؤال و لم تكتفي بالإصغاء السلبي. لقد بعثت قليلاً من الفرح والدفء في هذا القلب البارد والصلب. أنا لا أرغب في الحياة يا سيدتي، ستقولين:

- ولماذا لا تقتل نفسك؟

أقول لك إن الجواب على هذا السؤال شديد التعقيد، الخوف من الموت جزء يسير منه. لكن القضية أكثر تعقيداً من الخوف من الموت ومواجهة المجهول فقط. هل تعرفين ماذا أريد أن أفعل قبل أن يعدمني القضاء والقدر؟ أريد أن أذهب إلى (ديزني ويرلد) وسأسافر إلى اورلندو غداً.

أشكرك على سؤالك، لماذا تريد أن تسافر وتتفرج على العالم وأنت ميت؟

◆

هل تذكرين؟ ولدنا معاً في ذات السنة، ولعبنا معاً في الحارة مع معتصم وسهام وعبدالكريم وهيام وابن عمك .. نسيت اسمه ومعك، وهل تذكرين اسم عصابتنا؟ أنا لم أعد أذكر تماماً، لعلها عصابة الوردة الحمراء.

حين جئت إلى مسقط رأسينا لحضور حفل زفاف شقيقك، فرحت، قلت: أخيراً.. غادرت إلى المدينة، بعد غياب ثلاثين سنة،

أتذكرين حين سافرتم إلى الخليج، ثم سافرت أنت إلى كندا لتدرسي، ثم تزوجت أستاذ جامعة عربيا وبقيت في كندا. وها أنت تعودين لأول مرة بعد ثلاثين سنة، كنت حبي الأول، أنت لا تعرفين ذلك. حين أتيت إلى مسقط رأسينا، وسألت عني، وجئت إلى بيتي لزيارتي، وقلت إنك كنت تتابعين أخباري بين الحين والآخر، كما أتسقط أنا أخبارك وأتلقطها من هنا وهناك.

أقول: حين أتيت لزيارتي وقعت معجزتان لم تشعري بهما، أولاً استقبالي لشخص آخر، وهذه معجزة ضئيلة صغيرة، أما المعجزة الكبرى التي لم يصدقها أحد، وباتت حديث الحارة، فهي تلك التي تجلت بقبولي دعوتكَ إلى حفل زفاف شقيقك الأصغر. هلٍ تعرفين ماذا يعني ذلك؟ لا، أنت لا تعرفين. إنه يعني أنك دعوت ميتاً إلى حضور حفل فرح، فخرج من قبره، وعاد إلى الحياة، واشترى بدلة أنيقة وربطة عنق، وسعى إلى الحلاق لأول مرة منذ سنة، وتحمس، وشعر بالاضطراب والحيرة، هل يأتي إلى الحفل حاملاً الزهور بيده؟ أم يرسلها بائع الزهور نفسه مع بطاقة عليها اسمي؟ هل أشذب لحيتي الشعثاء فقط، أم أحلقها كلها؟ البدلة.. هل أختار سترة فاخرة من لون وبنطال من لون آخر يتجانس معها أم أشتري بدلة كاملة؟ حتى الجوارب والملابس الداخلية الجديدة، اشتريتها من أجل حضور حفل زفاف شقيقك، أنا الذي لا يحضر حفل زفاف ابنه لو كان له ابن كله من أجل أن أراك، ولكن لماذا؟ طوال ثلاثين عاماً من الغياب لم أفكر فيك، لعلني تذكرتك في مناسبة أو مناسبتين ، ولكن لماذا الآن؟ بعد أن جئت لتزوريني في بيتي الشاحب، وتري بأم عينك حطامي..

لماذا اشتعل نور ساطع في عالمي الميت المعتم؟

ربما لإحساسي باهتمامك، بقلقك عليَّ، خوفك علـيَّ. قلـت إنكِ تتفهمين، لكنك ترغبين في أن تريني أقاوم. سألتك:

- كيف؟

قلت وأنت تبتسمين تلك الابتسامة الناعمة التي لم تتغير منذ أيام الطفولة:

- ما رأيك في خطوة أولى ممكنة.. أن نتراسل أن يكتب كل منا للآخر عما جرى له خلال ثلاثين سنة، إلى أين وصل؟ ولماذا وصل إلى ما وصل إليه الخ.. نستعيد ذكرياتنا قبل أن تسرقنا الحياة من بياض الطفولة الناصع لتقذف بنا إلى عالم ملوث.

سألتك عن زوجك، قلت أخاف أن يعتب أو يشك أو يغضب، يا للضحكة التي أطلقتها، يالها من ضحكة! أدفع نصف عمري (الذي أفلس) من أجل سماعها مرة أخرى. هل تعرفين أنني حفظت عدداً من النكات كي أسمعها مرة ثانية وثالثة؟

قلت إننا أصدقاء، قلت ضاحكة (ما سر المعجزة في ضحكتك؟) إنك تعرفينني قبل أن تعرفيه، وإنك حكيت له عني، وقلت إنه لا يمانع ولن يمانع وهو يتطلع إلى التعرف إليك وأن الصداقة الصافية الخالصة في تلك البلاد ممكنة، ثم تذكرت أن آلاف الأميال تفصلنا. وتذكر أيضاً، لكي يطمئن قلبك فقط وتبوح إن أحببت، في تلك البلاد الزوج لا يقرأ بريد زوجته، والزوجة لا تقرأ بريد زوجها. ثمة شيء اسمه الخصوصية هناك، أتدري أنني لا أجد كلمة عربية صالحة لترجمة الكلمة للعربية؛ لأن مفهوم "الخصوصية"

غير موجود عندنا نحن العرب أصلاً. وكلمة خصوصية قد تكون أقرب ترجمة عربية لكلمة (Privacy) بالإنجليزية، لكنها ليست الكلمة المطلوبة. ببساطة أعتقد أن قواميس ثقافتنا لا تشمل هذا المفهوم وسافرت. لقاء واحد عابر بيننا أو لقاءان (إذا اعتبرنا وجودنا في حفل الزفاف بين عشرات الناس لقاء) أنعشا شيئاً ما لا أفهمه في أعماقي. إنني أقرأ هذه الرواية المعقدة المترجمة من الإنجليزية التي أتقنها إلى الفرنسية التي لا أتقنها، لأنني لا أريد قراءة شيء مفهوم كأنني أرغب في أن يسد خيالي فجوات عدم الفهم، فإذا بي أشارك في صياغة الرواية.

الرواية ضخمة جداً بالمناسبة وسأحتاج لسنة كاملة كي أقرأها، (تذكري إنني أقرأ الفرنسية ببطء شديد) المهم.. تصوري أن "ريموند" و"مارغريت" و "جفري" و"إيان" و "سارة" صاروا أصدقائي الوحيدين في هذا العالم، بالإضافة إليك، وإلى هيام ومعتصم.

المهم أن الرواية غريبة وغير واضحة بالنسبة لي (طبعاً) إنها رواية عن هؤلاء الأشخاص. كل منهم يتكلم بصيغة المتكلم ويرى العالم من زاويته.

قلت لعمي "أبو معتصم " إن بيت عاصي قد يصاب بالسرطان، لأنه لا يعرضه للتهوية ويدخن طوال الوقت. رماني ابو معتصم بنظرة حائرة، نظرة تسأل إن كنت أداعبه وأقول نكتة أم أنني جادة، وأنا نصف جادة ونصف "منكتة". لكنه لا يفهم بوجهه المتجهم إلا الجدية الكاملة أو الدعابة الكاملة، الخلط يخلط عليه الأمر، خلط الجد بالهزل يأخذه إلى الالتباس.

أبو معتصم يريد أن تنفصل الأشياء، وأن لا تتصل، مثل النهار والليل، ولكن من قال إن النهار والليل منفصلان. أبي كان يقول لي إن النمل الأشقر الأحمر انكليزي، والنمل الأسود عربي. وسألته إذا كان الإنجليز طيبين مثلنا، فقال إنهم منحازون ضدنا ويستعمروننا. و لم أفهم، فهمت أن النمل الأشقر الأحمر شرير، وان النمل الأسود هو نحن، يعني من جماعتنا، ورحت أدوس على النمل الأشقر وأسحقه بقدمي، فإني أعتقد أن الحرب عالقة بين نملنا ونملهم.

حين وقع الحادث قالت لي حاستي السادسة إن حقل القمح الأشقر سيتضرج بالدماء، الصوت الذي يحكي معي، قال:

- لا تذهبي.

لم أذهب قلت لمعتصم أن لا يذهب، لكنه ذهب بعد أن طلب منه عاصي ذلك، وسهام كانت صامتة وتتمنى أن يرفض معتصم مرافقتهما، لكن معتصم لا يرفض لعاصي أمراً، لو طلب روحه لأعطاه. إنهما مثل الأخوين منذ الصغر، قبل أن أولد أنا في الحارة. الصوت الذي يخاطبني يتكلم بكلمات غامضة، مثل أحجية أو لغز يقوله لي ويبتعد تاركاً هم حله والوقوف على سره، عليَّ أنا وحاستي السادسة كذلك. حاستي السادسة لم تقل لي تفاصيل ما جرى في رحلة الصيد قبل أن يجري، لكنني أبصرت من خلالها أرضاً عامرة بالسنابل، عيدان القمح الذهبية، مثل بحر من الذهب، شعرالشمس منسدل على الأرض، ثم بقعة دم كبيرة وسط الذهب.

إنقبض قلبي، لم أذهب في الرحلة، لكن معتصم أصر، وأنا لم أعرف أن رسالة حاستي السادسة تنحدر من جريمة، ظننت أن هذا

الصوت الثرثار الذي يختلط بحاستي السادسة، يثرثر شيئاً ما عن اليابان. قلت لعل الصورة التي أراها ليست صحيحة ولا دقيقة، بقعة الدم ليست على حقل قمح ذهبي، وإنما على أرض يغطيها الثلج. وهذا يعني علم اليابان. وكان عمي (أبو معتصم) تحدث عن اليابان في الصباح وقال إنها ستسبق أمريكا، وإن أمريكا هزمتها عسكرياً، لكن اليابان هزمت أمريكا اقتصادياً. وأنا لا أعرف شيئاً عن اليابان سوى شكل عيون أهلها، وشكل علمها. وقلت لعمي أليس علم اليابان ثلجاً أبيض وعليه دائرة دماء. كنت مزهوة بمعلوماتي، رمقني بنظرة متعجرفة وقال إن الثلج والدماء لا علاقة لهما بالعلم، لكن عمتي أم معتصم قالت: برافو هيام، هيام شاطرة وتعرف علم اليابان، وهي قصدت أنه أبيض وفيه دائرة حمراء. ضحكت، وطار قلبي فرحاً، وقلت إن هذا بالضبط ما قصدته، لكن الأمر اختلط عليَّ، فالثلج أبيض والدم أحمر، إذن ما الذي أثار عمي؟ أنا لم أخطئ عمي لا يحبني، كيف لو عرف أنني اثنان، أنني حامل؟

ولم يقل معتصم لعمتي وعمي إنه ذاهب مع عاصي وسهام إلى الصيد. قال:

- لا تقولي لهما.

وأنا رأيت الثلاثة بعين حاستي السادسة يسبحون في بحر السنابل. وهذه المرة، لم أر طوفاناً من رمال الصحراء، بل طوفاناً من الهواء الأشقر يغمر ثلاثتهم، ومعتصم يصيح: أين سفينة نوح؟ أين نوح؟ وكان بحر الهواء عميقاً ودموياً أشقر وهم يعاركون أمواجه.

حين لم يقتنع معتصم برأيي، وأصر أن يذهب مع سهام وعاصي إلى الصيد، غيرت رأيي، قلت إذن سأذهب معكم. أخذني

معتصم إلى الغرفة، غرفتنا، ونهرني، وقال إن النساء لا يذهبن إلى الصيد لأنهن لا يلبسن سراويل وبناطيل، فقلت إن سهام امرأة، وهي لا ترتدي بنطال جينز، إنها ترتدي "تنورة". همس معتصم من بين أسنانه غاضباً:

- سهام عاهرة.. ولا يهمها أن يرى الرجال الجزء الأسفل من جسدها. معتصم يسميه دائماً هكذا: الجزء الأسفل من الإنسان، ويقول إن اللغة العربية سمته الأسفل لأنه سافل عند بعض الناس، وقال إن سهام سافلة ولا تستحي.

ورأيتهم من موقعي، من بيتنا، بيت عمي "أبو معتصم"، حاستي السادسة تخترق الجبال والجدران، ورأيت عاصي ومعتصم يصوبان بندقيتهما نحو الفضاء، والطيور تضرب الهواء بأجنحتها، وتحت شجرة لوز تفتحت أزهارها البيضاء جلست سهام تقشر برتقالة، شممت رائحة اللوز أولاً ثم البرتقالة، لأن حاستي السادسة تشم من فوق التلال ومن تحت الجدران.

لكن سهام لا تستطيع أن تضع عينيها في عيني معتصم، لأنها تعرف أنه يعرف. عيناها تنكسران حين ينظر معتصم إليها، وأنا قلت ألف مرة إن الحق عليها وليس على عبدالكريم.

حاستي السادسة تلتقط كلماتهما. قال معتصم: الطيور تسبح في بحر الذهب الجعدي. أيام زمان كان شعر سهام ذهبياً وجعدياً، لكنه تحول الآن، صار داكناً كالخروب، الخروب بني فاتح. أنا أحب اللون الأبيض، ألم يكن اسم شلتنا أيام اللعب بالحارة شلة الوردة البيضاء؟ أم الوردة الحمراء؟ ذاكرتي تضمحل لصالح خيالي، هكذا

قال معتصم، وكان معنا في الشلة محمود الذي قتل في الحرب الأهلية اللبنانية، قتل قبل أن يتزوج أو يركب طائرة. لكن حرب الخليج "عاصفة الصحراء" هي التي فجرت غيوم الجراثيم الكيميائية، وانتشرت السحب، ووصلت إلى هنا. ومنذ ذلك الوقت وأنا أشعر بأن ذاكرتي تضمحل، ولا شك أن الجراثيم الكيماوية في الحرب هي السبب، لأن عمي قال لأبي حين زارنا، وكانا يلعبان طاولة الزهر: إن الأمريكان اعترفوا أخيراً بأنهم قصفوا مستودع ذخيرة وأسلحة جرثومية كيماوية في العراق أثناء الحرب، وأن جنودهم أصيبوا بمرض أعراض حرب الخليج، لكن الجراثيم الكيماوية لا تفرق بين أمريكي وعربي، ولا بد أن السحابة امتدت إلى سمائنا؛ ولهذا تذوي ذاكرتي وذاكرة معتصم، وتتضخم أخيلتنا كما قال عمي (أبو معتصم) وقال عمي:

- لكنها مازالت تستطيع أن تعد لنا قهوة دون أن تحرق البيت.

وفهمت كاللبيب من الإشارة، أنهما يريدان فنجانين من القهوة، فقمت إلى المطبخ. لكن عمتي قالت إن المطبخ مملكتها، وإنها تمنع كل الناس من دخوله، ثم ابتسمت، لأن قلبها أبيض، وقالت:

- لكنني سأعاملك معاملة خاصة، وأسمح لك باستعماله شرط أن تخبريني، حتى لا يحترق البيت، يعني عندما تكونين في أحسن حالاتك، في سن الرشد. قلت لها إنني طبخت (مقلوبة) قبل أيام ولم أحرق البيت.

بيروت احترقت، واحترق معها أحد أفراد عصابتنا الذي ذهب إلى هناك، لو كان هنا لذهب معهم في رحلة الصيد، واطمأن بالي لأن محمود يعرف كيف يعتني بنفسه. منذ زمان وهو يعرف كيف يعتني بنفسه، كان أشطرنا في اجتياز الشارع حين نهرب إلى السوق، ونلعب لعبة السيارة والشارع. ننتظر اقتراب السيارة البعيدة، نقف على الرصيف بانتظار مجيئها ثم نركض بكل قوتنا لنجتاز الشارع قبل أن تدهسنا. وكنا، في آخر لحظة، نخاف ونتردد، لكن محمود يركض مثل الومض ويعبر الشارع أمام السيارة، ثم يركض مرة أخرى، لأن الرجل الذي يقود السيارة يزعل. فيوقفها في وسط الشارع ويركض خلف محمود ليضربه، لكن محمود يتقن حماية نفسه. أيامها كانت السيارات في البلد قليلة، اليوم تحولت المدينة إلى (كراج) كما تقول خالتي أم معتصم. وكانت المدينة صغيرة، لم تكن مدينة، كانت قرية. عمي يقول إنها ماتزال قرية، لكنها باتت قرية كبيرة ذات مناطق فخمة، ذات طوابق حلوة. ومرة غضب عمي (أبو معتصم) وقال إنني ومعتصم أجرنا الطابق العلوي، وإن حكاية انتقالنا وتقدمنا وتقهقرنا في مشوار العمر ليست سوى هراء، وأنا لم أعرف معنى كلمة هراء، وقال إن الدواء يؤثر علينا بشكل إيجابي أحيانا فنبدو طبيعيين، لكن ما أن ينتهي مفعول الدواء حتى نظهر على حقيقتنا. وقال إن النوبات تأتي وتذهب، وحين لا نكون تحت تأثير النوبة نبدو طبيعيين، خصوصاً إذا أكلنا هواء وسكتنا أمام الناس الغرباء.

وأنا لم أفهم ماذا يعني بكلمة (طبيعيين)، لكنني أعرف أن ثلاثتهم في الطبيعة يصطادون، ولست أدري إن كانت سهام تصطاد أم تعد طعام الغداء لهما، وتتأمل الطبيعة. الطبيعة التي خذلت محمود

فقتلته، طبيعة الوحش، محمود كان العقل المدبر قبل عاصي، كان يضع خططاً لتنفيذ مغامراتنا:

اليوم سوف نبول على جدار بيت أم سليم ثم نهرب، حتى تتعلم أن لا تقول عنا زعران وأولاد شوارع مرة ثانية، غداً نسرق حقل الليمون في بيت الحاج كامل، وإذا أمطرت السماء نبحث عن حفرة نظيفة أو خزان خرب فارغ ونسبح. أما يوم الخميس فنطارد قطط الحارة بالحجارة، ترى لو تزوجت محمود الميت، هل كنت سعيدة أكثر؟

عاصي يقول إنه ميت، لكنني أراهم بحاستي السادسة يصطادون في حقول القمح، لم يقولوا لي أين سيصطادون وماذا؟ ولكن مادام البحر الميت ميتا، ولا سمك فيه، فإنهم سيصطادون العصافير.. ترى لماذا لم يفكر أحدهم بإقامة جنازة للبحر الميت؟

البحر الميت بلا ظل لأنه ميت. الموتى لا ظلال لهم، عاصي له ظل حين يمشي في الشارع، حين يذهب إلى الدكان، فكيف يقول إنه ميت؟

حاستي السادسة تبصرهم تبصر ظلالهم وتشمها لكن عند الظهيرة تستفحل قوة حاستي السادسة، فأبصرهم وأشمهم بدلاً من الظلال. الضوء الآن خافت، وحاستي السادسة تصبح رهيفة السمع عند الظهر، رهيفة يعني قوية، هذه الكلمة تعلمتها حين كان عمري أربعين سنة، ومازلت أحفظها مع أن عمري الآن عشرة أعوام فقط.

أحياناً تخوننا ظلالنا مثل ذاكرتنا وأزواجنا. ساعة تمشي أمامنا على الأرض كأنها تبدي الولاء، وساعة تغدرنا فإذا هي خلفنا

تراقبنا ولا نراقبها لا نراها، الغدر من الخلف، أعتقد أن عمري ليس عشرة أعوام الآن، أعتقد أنه مثل الزئبق يتراوح دفعة واحدة بين الطفولة والكهولة، نازل طالع مثل ميزان حرارة يدخل في فم مصاب بالحمى ثم ينتقل إلى فم رجل مات لتوه، من الحر الشديد إلى البرودة.

من الذي قال لي إن والده حبسه في الحمام أيام الطفولة، فإذا به يملأ حوض الحمام بالماء ويسبح مبتهجاً بدل أن يبكي. أبوه توقع أن يخاف وينتحب ويقبل يديه لكنه لم يكترث، لم يبال، راح يسبح في حوض الحمام.

وثلاثتهم يسبحون في أشعة الشمس في حقل قمح ويبحثون عن عصفور يصطادونه. يضعون عقلهم في عقول العصافير الصغيرة، سهام لا تحب الصيد، تفضل الموسيقى. سهام كانت حرة طليقة عندما كان عاصي في المعتقل كانت تسمع الموسيقى متى تشاء. الآن، بعد أن أطلقوا سراحه بعد أن استنكر واعترف، اعتقلها هو، منعها من سماع الموسيقى الكلاسيكية قال إنها لاتنسجم مع الأذن العربية الشرقية، وإنه يتضايق منها، من الموسيقى أعني، لكنه يحب الصيد، وسهام لا تحب الصيد، وسهام تحب الموسيقى، وسهام تفعل ما يقوله عاصي؛ لأنهما تصالحا بعد أن حقق معها وعذبها واستجوبها، واكتشف أنها بريئة.

إنني الآن في السادسة والعشرين من عمري.

في السنة الثلاثين من عمري أبصرتهم جيداً بحاستي السادسة، اختفت الظلال، رأيتهم هم لا ظلالهم.

أعددت القهوة لعمي وأبي، وحملتها على الصينية ووضعتها على المنضدة المجاورة. عمي قال إنه يريد كأساً من الماء. لم يقل شكراً، ولا والدي قال شكراً. قلت لهم إنني أرى الثلاثة معتصم وسهام وعاصي، نفخ أبي وقال ها هي تتقهقر نحو الطفولة مرة أخرى. لكنني كنت أتقدم نحو الكهولة، الكهولة تعني الأربعين. إنهم لا يعرفون أنني أعرف الكثير أكثر منهم يقولون: واحد + واحد = اثنين. لكن خالد بن الوليد زائد عاصي لا يساوي اثنين، لأن خالد بن الوليد يقاس بمئة رجل.

إنني الآن في السابعة من عمري. أحس بالبرد حين يتقهقر عمري إلى الطفولة، كأنني ميزان حرارة كلما ارتفع صار ساخناً، فإذا برد هبطت حرارته.

أهلنا أشباح، أقصد أبي وأمي وعمي وخالتي، إنهم أشباح مجرد أشباح في حلم يقظة. عاد عمري الآن يرتفع، توقف عند السبعة عشر عاماً.

إنني أبصرهم، ثلاثتهم، وأشم رائحة غضب أسود، رائحة دخان في حقول القمح، ليس حريقاً من النار، لا، حريق غضب له دخان أسود ورائحته رائحة الدخان، لكنه ليس حريقاً، ليس ناراً.

أخشى أن تحرّض زوجها ضد زوجي، ربما كانت هذه رائحة غضب عاصي وقد انصب على معتصم؛ لأن سهام ثعبان وعبد الكريم بريء. حذرت أبي قلت إنني أشم رائحة دخان. قال دون أن يلتفت إن خالتي تطهو الطعام. هذه رائحة الطعام، الفرن الذي في المطبخ. وأقبلت خالتي وقالت إنها نسيت قطعة خبز على الفرن،

وإنها احترقت. قال أبي إن حاسة شم هيام قوية، لكنها ليست حاسة شم إنها الحاسة السادسة إلا ربعاً.

عمري الآن أربعة وأربعون عاماً. أما درجة الحرارة فحوالي العشرين، والساعة بلغت الواحدة ظهراً وعاصي سيقتل معتصم بعد ربع ساعة. وصاحت مستغيثة، فناولني أبي القرص الأبيض، فهدأ روعي.

قال أبي إنه هو وعمي ارتكبا خطأ فادحاً لأنهما لم يشتريا مساحات واسعة من الأراضي، ولم يذهبا إلى الخليج في الوقت المناسب. قال أبي ضاحكاً:

- وباب الفساد مغلق. إذن الأبواب الثلاثة المفضية إلى الثروة راحت علينا، أوصدت في وجهنا.

هدأت مخاوفي، رأيت قرص الشمس مستديراً فوق حقول القمح، وقلت إن الدائرة شكل الكمال. أشم رائحة عرقهم وهم يمشون في حقل القمح بحثاً عن العصافير، وأصغي إلى نبض الأرض تحت أقدامهم. تراجعت رائحة الدم، ذوت، الشمس ساطعة في زجاج النافذة، أرى لونها، إنه لون حار.

قال عمي إننا هزمنا بعد أن هزم المعسكر الاشتراكي في الحرب الباردة. قال إن العرب راهنوا على موسكو، واليهود راهنوا على واشنطن. وها هي واشنطن تربح الحرب! الحرب الباردة انتهت هل بدأت الحرب الساخنة إذن؟ الحرب بين معتصم وعاصي حول سهام.

كيف فاتتني رائحة شهوة معتصم؟ معتصم يشتهي سهام. في هذه اللحظة بالذات، في الساعة الواحدة والربع، حين بلغت

الخمسين من عمري اكتشفت رغبة معتصم في سهام، شممت رائحتها رائحة الرغبة الحيوانية.

وتعارك الاثنان. معتصم قال له:

- طلقها.. ولنتقاسمها معاً. عبد الكريم ليس أحسن مني كانا يشربان العرق ويخلطانه مع البيرة. إنهما ثملان، وسهام تصيح بهما، تقول إنهما سكرانان، وستعد لهما قهوة، قالت هاتوا البندقية، السلاح في يد السكران خطر، وأنتما سكرانان.

تحول معتصم إلى حيوان متوحش، ضرب عاصي، انهال عليه ضرباً وهو يصيح:

- تريد أن تلعب دور القواد؟ طلقها الآن بالثلاثة، ودعني معها.

وصرخ عاصي قال:

- أنت سكران.

ثم وجه معتصم ضربة قوية من رأسه إلى رأس عاصي، فسقط على أعواد القمح الذهبي، وأطلق معتصم عواء الذئب وهجم على سهام وهو يصيح:

- إنها فريستي.. أنا.

أطلق عاصي النار. هل أطلق الرصاصة على معتصم فأصاب سهام؟ أم أطلق النار على سهام؟

لكن الرصاصة طاشت بين السنابل الذهبية. التفت معتصم كثور هائج وصرخ:

- إذا لم تكن لنا جميعاً، فلن تكون لأحد.. طلقها وإلا أطلقت عليها النار.

ثم أطلق عليها النار. أنا رأيته بحاستي السادسة. هل رأيته بحاستي السادسة، أم أن معتصم انهار على صدري وراح ينتحب ويحكي ما جرى؟

هل نستطيع العودة إلى الوراء، الانحدار إلى طفولتنا كلما رغبنا في ذلك؟ .. كما يعتقد معتصم، وكما أقنع هيام؟

آه، لو نستطيع العودة، الانحدار إلى حضيض الطفولة وكمالها، لمسحنا جميعاً آثار أقدامنا منذ خرجنا على قدمين لأول مرة أيام الطفولة، من البيت إلى العالم الخارجي، لغيرنا الدروب، لبدلنا المسارات.

كل الذين يقولون على شاشة التلفزيون إنهم لو عادوا إلى الحياة من جديد لما غيروا شيئاً.. يكذبون. يا إلهي، لو أستطيع أن أتقهقر صوب أيام الطفولة محتفظاً بذكرى هذه الحياة، لعلي لن أخطو خطوة واحدة في المسار الذي سرته مختاراً أو مذعناً.

ولكنني غير مضطر لمواصلة المشوار حتى القبر، سأظل هنا، بلا حركة ولا خطوات، إلى أن يأتي الموت لي، فلا أسعى طائعاً مذعناً إليه، أشبك ساقاً على ساق وأنتظره، دون احترام ولا لياقة ولا مجاملة ولا لباقة. حين يصل سأظل هنا في زنزانتي الممتدة من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي. سيجدني راقداً، ويدي تحت رأسي ونعلي في وجهه. لن أقف احتراماً وإجلالاً، الذين يقفون احتراماً وإجلالاً منافقون يرغبون في مساومته على بضعة ايام أو ساعات زيادة عن الموعد المحتوم. أما أنا فأنتظره قبل الموعد المحتوم، أتحداه، أقول تعال الآن، أريد أن أراك الآن، لكنه منهمك بحصد أرواح

الذين يعشقون الحياة. إنه لا يأتي بسهولة لأمثالي، الذين إتخذوا قرار موتهم قبل أن يصل، الذين تحرروا من الرعب والمواعيد والمجاملات واللياقات وما يسمى بالعُرف والعادة والتقاليد.

توفي ابن عمي، لم أذهب إلى العزاء ولا إلى الجنازة، لأنني ميت وحر. اتصل أحد الوزراء بي، لم أرد على الهاتف، جاء شخصياً، قال إن الوطن بحاجة إليّ كي أمثله في سفارتنا الفلانية، لأنني كذا وكذا، ولأن الناس فوق يريدون. قلت إنه لو عرض عليَّ رئاسة الوزراء لأعرضت بوجهي ممتعضاً. تصور جدول الأعمال، أقصد الأجندة: الساعة كذا إلى المطار لاستقبال الوفد الفلاني الساعة كذا لقاء مع..

ماذا لو أنني أحسست بالكآبة فجأة، بعدم الرغبة في رؤية أحد، ولاحتى مارلين مونرو أيام عزها؟ لا، الميت حر، وأنا حر إذن أنا ميت.

أعرف، بعد التجربة، أن الموت في الحياة يناسبني، لا أظن أنه يناسب الآخرين. لا أظن أن الموت الحقيقي (الإعدام) ممتع مثل هذا الطراز من الموت.

إنه موت نظيف، لا انتحار ولارغبة في الحياة. لا.. إنه غير الاستقالة من الحياة، ولا التقاعد، إنه الموت في الحياة.

أعرف أن هيام ومعتصم في ذروة فرحتهما اليوم، فقد أنجبت هيام طفلاً جميلاً معافى.

لم أذهب للمباركة. إنهم يعرفون ويتفهمون، وسوف يحملان طفلهما الجميل لزيارتي، وسأكون بصحبة رواية جديدة (باللغة

الإنجليزية على الأغلب) وسأكون ساهراً مع أبطال الرواية، مسترخياً أنام إن شئت، وأطردهم متى شئت، وأستدعيهم إذا تحسن مزاجي.

إنني أكاد أرى هيام ومعتصم يحتفلان بالعام العشرين لميلاد ابنهم، وبالعام الثامن لميلادهما!!

لندن أواخر شهر ١١-١٩٩٦

عصابة الوردة الدامية

" مؤنس الرزاز واحد من الأصوات الجديدة في الرواية العربية. نجد في نتاجه كل المعاناة التي انتجت الرواية الجديدة. رواية ملتصقة بالواقع، رواية تفتيش عن أسلوب يجمع بين الحداثة والينابيع في الأدب الكلاسيكي... هو ظاهرة أدبية خاصة في الأردن - الأردن الذي أعطى تيسير سبول وغالب هلسة، الرواية الجدبدة لها مكان جديدة تنطلق منه تجربة جديدة ".

الياس خوري النهار ٩٤/١/١٩

" يسعى مؤنس الرزاز إلى تحقيق مسافة جمالية يضمن فيها التباعد اللازم بين المؤلف والنص... وتكاد روايته (اعترافات كاتم صوت) أن تكون من بين النصوص (العربية) القليلة الحافلة بتجريبية غنية وهي تبحث عن تقنية كلية متداخلة بين (الحواري) و (الاعترافي)، الديالوجي والمونولوجي، لاستحضار التجربة بكل تعقيداتها وتداخلاتها ".

د. محسن جاسم الموسوي "ثارات شهرزاد"
فصل: الحداثة والتجريب في الأدب القصصي ١٩٩٣

" تكمن خصوصية مؤنس الرزاز الروائية في بحثه الشكلي، في انتقاله المتجدد من شكل إلى آخر. وحقيقية الأمر أن الرزاز لا يريد أن يقدم شهادة عن التاريخ العربي المعاصر، بقدر ما يسعى إلى تقديم انهيار هذا التاريخ في شهادة روائية (...) الأمر الذي يذكر ببعض أعمال صنع الله إبراهيم ..." .

الاغتراب بين رواية غالب هلسة ورواية مؤنس الرزاز
د. فيصل دراج، مجلة أفكار، تشرين الثاني ١٩٩٣

عربية
منشورات 97
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي
هاتفاكس: ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١